جبران خليل جبران

النبي

ترجمة: ثروة عكاشة

النبـــى

جبران خليل جبران

ترجمة موازية للنصّين الإنجليزى والعربى :

د. ثــروت عكاشــه

اللوحات المصوّرة :

جبران خليل جبران

الرسوم التنميقية :

الفنان صلاح طاهر

الإخراج الفنى :

مجدى عـز الـدين

الطبعة التاسعة ٢٠٠٠م

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٨/١٥٢٥٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N.: 977 - 09 - 0513 - 5

حقوق الترجمة محفوظة للمترجم

© دارالشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٥ خطوط) - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧

البريد الألكترونى : dar@shorouk.com

الطباعة : مطابع الشروق بالقاهرة

جبران خليل جبران

النبي

ترجمة موازية للنصّين الإنجليزي والعربي

د. ثروت عكاشه

دار الشروق

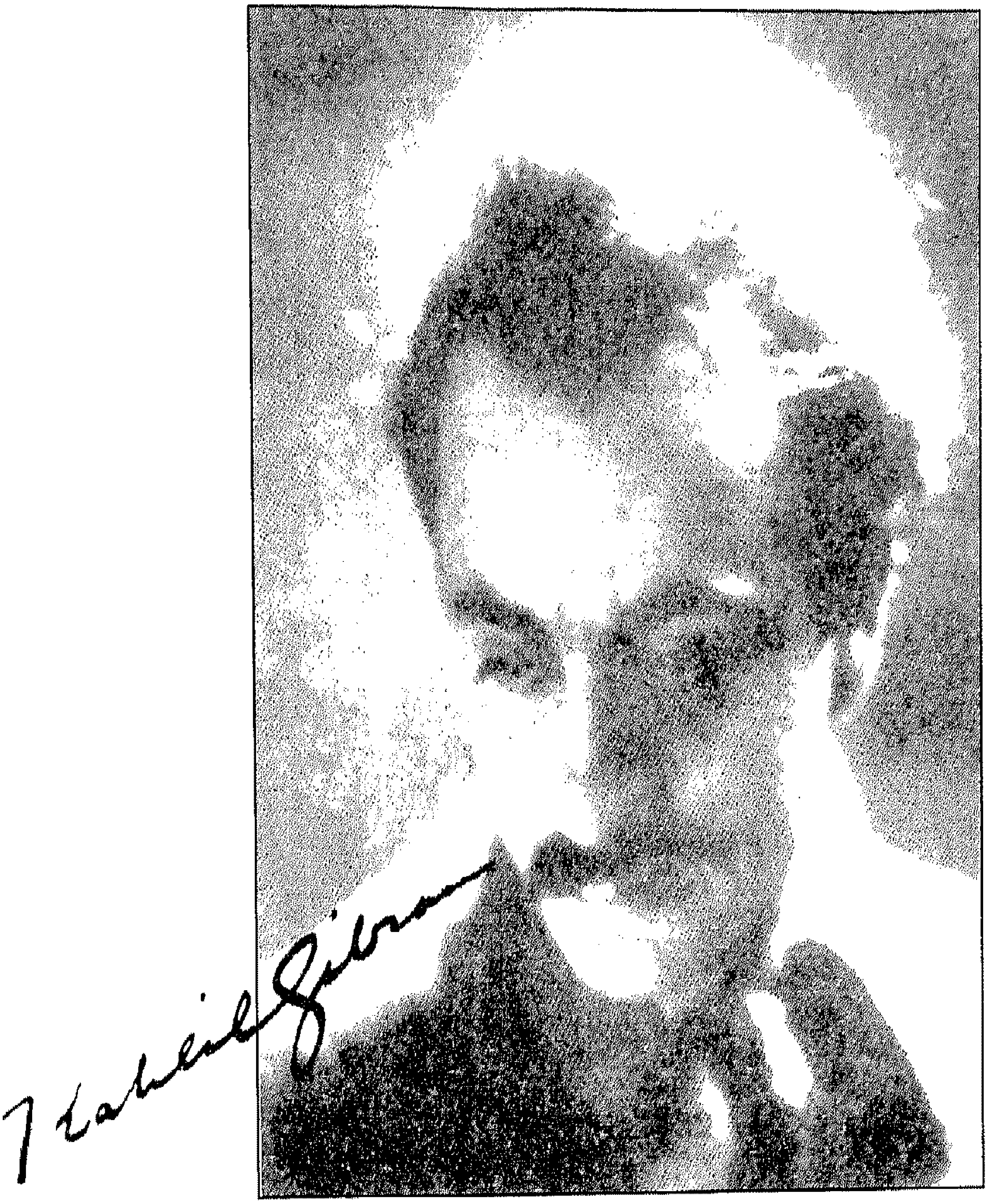
Kahlil Gibran

المحتويات

صفحة

توطئة.. .... ٥

الحب............................ ١٠

الزواج........................... ١٤

الأطفال.......................... ١٦

العطاء........................... ١٨

المأكل والمشرب................... ٢٢

العمل............................ ٢٥

الفرح والحزن..................... ٣٠

البيوت........................... ٣٢

الثياب ٣٦

البيع والشراء.................... ٣٨

الجريمة والعقاب.................. ٤٠

قوانينا.......................... ٤٦

الحرية........................... ٤٩

العقل والعاطفة................... ٥٣

الألم............................ ٥٦

معرفة النفس...................... ٥٨

التعليم...... ٦٠
الصداقة...... ٦٢
الكلام...... ٦٥
الزمن...... ٦٧
الخير والشر...... ٦٩
الصلاة...... ٧٣
المتعة...... ٧٦
الجمال...... ٨١
الدين...... ٨٥
الموت...... ٨٨
الوداع...... ٩٠
أقوال النقاد...... ١٠٧
ثبت ببليوجرافي...... ١١٣
المحتويات...... ١١٩

نشأة جبران

بين دمشق وبعلبك تنقَّل جدود جبران . طاب لهم المقـام أوَّلا فى دمـشق فـاتَّخـذوهـا مَـوْطنًا ، ولعلهـا كـانت وطنهم الأول الذي فـيـه نشـأت هذه الأسرة . وما نشكُّ في أنها كـانت من الأسر المتوسطة التي تعيش على مـا تكسب ، حتى إذا مـا ضـاقت في وجهها سُبُلُ الكسب خرجت من بلد إلى بلد لا يشدّها إلى البلد الأول سبب ؛ فهي لا تملك فيه شيئاً . وحين ضـاقت دمشق بأجداد جبران خرجوا منهـا يقصدون بعلبك ، خرجوا يستدبرون ضيقًا في دمشق ليستقبلوا سعـة في بعلبك . ومـا نظن أن المقام طاب طويلا لهذه الأسرة في بعلبك فلقـد خـرجت إلى قـرية أخـرى في لبنان هى بشعـلا . لا ندري كم أقـامت في بعلبك ، ولا كم أقـامت في دمـشق ، ولكنّا ندري أن يوسف الجَـدّ الذي انتـقل بهـذه الأسرة أولاً إلى بعلبك قـد أعـقب سعداً ، وأعقب سعد جبران خليلا والد جبران ، الرَّجل الذي نُتَـرْجِم له . وأغلب الظن أن هـذه الأسـرة كـانت تحترف البيعَ والشراء وتحترفه على صورة هيِّنة يسيرة ، تخـرج للتسـوُّق هنا وهناك لتكسب رزقًـا قليـلاً يقيم أَوَدَها ، ويُبَلِّغها كَفافَها .

وفي ظل هذه التَّنقلات ألـمَّت الأسرة بقرية بشَرّي في الشَّمال من لبنان، لا ندري أكان أول من ألمَّ بها خليل والد جبران أم كان غيره من آبائه قد ألمَّ بها من قبل. وفي هذه القرية التقى خليل والد جبران كاملة بنت الخوري اصطفان عبد القادر رحمة. ولم تكن كاملة حين التقاها خليل بكْراً، وإنما كانت أرملة تُوُفِّي عنها زوجها الذى خَلَّفَها في الحياة وخَلَّف معها ولدًا منه هو بطرس. وأغلب الظن أن بطرس هذا حين التقى خليل كاملةَ كان صبيا لا يعدو الخامسة أو يتجاوزها بقليل؛ إذ أن خليل بعد أن بنى بكاملة، وحين أولدها جبران، كان عمر بطرس ستة أعوام.

وكانت كاملة قبل أن يلقاها خليل في بشَرّي قد جربَّت الرّحلة إلى أمريكا مع زوجها، فلقد رَحلت معه إلى البرازيل سعيًا وراء الرِّزق وضربًا في الأرض البعيدة، شأنها في ذلك مع زوجها شأن اللبنانيين جميعًا: عُشّاق أسفار، وجَوّابو أقفار، وراكبو بحار يطلبون الرِّزق في منابته. وكانت أمريكا قد ملأت أذهان اللبنانيين بخيراتها الكثيرة ونعيمها الواسع، فخرجوا إليها يطوِّح بهم الرِّزق القليل إلى حيث الرِّزق الوفير. وكما خرج كثير من اللبنانيين خرج حنا عبد السلام رحمة بزوجه كاملة إلى البرازيل، وهناك

ولدت له ولده بطرس، ولكن الأب ما كادت تَقَرُّ عينه بابنه حتى أغمضها إلى الأبد. وحين فجعت الأم في الأب سَئمَت المقام في البرازيل فحملت صغيرها ولم يكن قدَ جاوز السنة الأولى من عمره وعادت إلى لبنان. غير أن تلك الرِّحلة كان لها شأن كبير في حياة صاحبنا جبران، وكأن كاملة ما جابت البحر إلا لتهيّئ لجبران فيما بعد رحلة ثانية إلى أمريكا بعد رحلتها الأولى؛ فلو لم تكن رحلة كاملة إلى أمريكا، ما كانت رحلة جبران إليها فيما نظن.

وعلى حين كان الزَّوج الأول لكاملة رجلاً صالحًا كان خليل رجلا غير صالح، وسكّيرًا لا يكاد يفيق، ولكنه على هذا كان فكهًا ظريفًا، ذَلِقَ اللّسان، طيب العشْرَة. ولعل تلك الأسباب هي التي قرّبته من نفس كَاملة فرضَتْ به زوجًا بعد زوجها الأول. وفي السّادس من كانون الأول[1] ـ وإذا ذُكر كانون ذُكرَ البرد بلَفْحه وعَصْفه، فهو يقابل من الأشهر الإفرنجيَة شهر ديسمَبر ـ منَ عام ١٨٨٣ وُلد جبران في هذه القرية «بشَرّي»، رُزقه والده بكْرًا على كبر، فكانت فرحته به عَظيمة، ثم أنجبت كاملة بعده بعامين بنتًا أسمتها مريانا، ثم أخرى دعتها سلطانة.

---

(١) ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران. ط٣ بيروت، مكتبة صادر، ١٩٥١. ص ٢٥.

«أسرة خليل جبران»

وبشَرّي التي وُلد فيها جبران ودَبّ، قرية جميلة تُشْرف على وادي قاديشيا، تعلو عن سطح البحر بنحو من ألف وأربعمائة متر. هواؤها عليل، وجوها يميل إلى البرودة، أهلها أميل ما يكونون إلى الطَّرب واللَّهو، ومن تحتها واد سحيق، ومن حولها الزرع والشجر، تُغَرِّدُ على أغصانه الطُّيور، ويستجيب لغنائها النّاس، فيندفعون هم الآخرون يغنّون، وقد تشابكت أشجار الأرْز الضَّخمة الباسقَة فعَقَدَت فوق رؤوسهم سماءً تَردّ عليهم صدى أصواتهم وصدى أصوات الطَّير من فوقهم، فإذا هذا كله تتجاوب به الأرجاء فترِدِّده موسيقى حُلوة هيّنة، تضم إلى نشوة النّاس بمقامهم نشوةً، وإلى خفَّتهم خفَّة.

في هذا الجو العامر بزَرْعه، الصّاخب بجماله، الحافل بالنشوة، نشأ جبران ينظر ويسمع. وكان ذا عين تتتبَّع الجمال فأرسلها وراءه حيث كان، وذا أذن أرْهفَت للشَّدو ففتحها لا يُغلقها عن سماع شيء منه، وذا قلب يَلْقَنُ عن هذه العين وتلك الأذن، فتفتَّح هو الآخر لما تنقله إليه العين وتصبّه فيه الأذن، فإذا جبران عامر بهذا الجمال يكاد يستوعبه كله، وما أقام في ظلاله غير أعوام تجاوز العشرة بعامين، وهوعلى هذا قد امتلأت نفسه تقليداً، يفعل ما يفعل النّاس من حوله

فيرسم الرسوم الدينية ويؤدي العبادات، ويأنس إلى شجيرات الأرْز المزدَهرَة وسط جفاف الجبل، وإلى أنغام الأنسام تمسّ الغصون والأزهار ويحادث غيوم الأفق وهمهمات الغابات.

وعلى الرغم من بُعد أبيه عن الدين - إذ كان لا يعنيه من الحياة سوى كأس ولفافة تبْغ، فإذا لم يجد الكأس سرَّى همَّهُ بتلك اللفافة التي كانت لا تفارق فاه - فإن الصبيّ شبّ دينًا، ورث ذلك عن أمه كاملة أولا وعن أخيه بطرس ثانيًا. لقد كان الأب مشغولا بنفسه وكانت الأم مشغولة بأولادها، من أجل هذا أثّرت الأم في أولادها ولم يقو الأب أن يترك شيئًا من الأثر في أولاده. فلقد كان جبران وهو صغير أشوقَ ما يكون إلى الطقوس الدينية، وأحرص ما يكون على أن يحضرها. يحكون أن بطرس - وكان فتى قد أشرف على الثانية عشرة - بكّر ليخرج مع نفر من رفاقه إلى الجبل ليتعذّبوا مع المسيح في فجر الجمعة الحزينة، وتَنَبَّهَ لهم جبران فتعلّق بهم يريد أن يخرج معهم، فلم يرضَ الأب وضربه ليحول بينه وبين هذا الخروج فما أفلح، واحتالت عليه الأم لتحولَ بينه وبين هذا الخروج فما أفلحت. وخرج الصغير ليجمع الأزهار من فوق الجبل ليشارك بها في هذا الحفل الكنسيّ. ويمضي النهار

وجبران لم يعد فتقلق الأم، ويقلق الأب، ويقلق الأخوة، ويخرجون جميعًا يبحثون عنه؛ فإذا هم يلقَونه قبيل الغروب في المقبرة خلف الكنيسة وفي يده طاقة صغيرة من عيدان «بخور مريم». ولقد همّت الأم به لتؤنّبه فإذا هي ترتد عنه كسيفةً حزينة حين تستمع إليه يقول: إنه انفصل عن أخيه، وذهب إلى البريّة وحده ليتعذّب مع المسيح[1]، وإنه بعد هذا الجهد الطويل جاء بهذه الحُزمة من الأزهار ليضعها على هيكل الكنيسة فوجدها مقفلة، وعندئذ قصد إلى المدافن الغافية وراء الكنيسة ليفتش بين القبور عن قبر المسيح ليضع هذه الأزهار عليه؛ فيحيا وسط الذكريات الأسيانة لحظات فريدة يستمدّ فيها من الموتى قدرة على مخالطة الأحياء. على هذه الصورة الدينية كان جبران الصغير، أخذ هذا الدين تقليدًا عن الأخ ولم يكن عقله الغضّ قد كبر ليبحث واتسعَ لينظر. ولكن هذا الفتى الذي بدأ دينًا عن غير رأي ما يلبث أن يعود فتى دينًا عن رأي، يحبّ أن يمهّد لدينه برأيه ولا يحب أن يجعل رأيه في إثر دينه.

كانت سنوات جبران الأولى مزيجًا من التأمُّل، وتحمُّل شظف العيش، والتعاطف مع الآخرين فوق

---

(١) ميخائيل نعيمة: المرجع نفسه، ص ٣٣.

جبل لبنان الناحل الثراء، الممزَّق بألوان من التعصّب، كانت تخفيها عن عينيه روح أمٍّ متسامحة لا تضيق بالروم الأورثوذكس على نحو ما يضيق بهم الموارنة. فلقد شاهد يومًا حوارًا بين عجوز تسكن قريبًا من بيته وبائع زيت، وشاهد تلك العجوز تنصرف عن ذلك البائع لا تريد أن تشتري منه لأنه روميّ، فنبّه ذلك الغلامَ إلى أن يسأل أمه عن دينه فيعرف أنه مارونيّ. ويمضي الفتى يسأل أمه: وهل من خلاف بين الماروني والرومي؟ فيعلم أن كليهما نصرانيّ فتقرّ هذه في نفس الفتى وتؤلمه، ولكنه ما يكاد يرى أباه يكرّم هذا البائع حتى ينسى ألمه بفرح[1]. وهكذا بدأ الدين يدخل إلى نفس الفتى فكرًا لا تقليدًا، وبدأ الفتى يرى ولا يقلّد، ولكنه كان عميق الرؤية مسرفًا فيها فجرّه هذا إلى كثير مما سنرى بعد.

ولعل عنف جبران على نفسه جرّه إلى عنف في رأيه؛ فلقد كان لا يغفر أن يُقهر في الميادين الحسّيّة وكان يود لو أوتي البطش صغيرًا حتى لا يبطش به أقرانُه. وكم رجع إلى أمه باكيًا اليوم بعد اليوم لأنه كان يُصاب من لداته ولا يقوى على أن يصيبهم، وكم ودَّ عندها لو كان كبيرًا قويا ليقتل خصمَه غير مجتزئ بأن

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

ينال منه ضربًا . وهذه الرغبةُ من جبران في أن يقتل خصمَه ـ وما حاول خصمه أن يقتله ـ تكشف عن تلك النفس العنيفة في جبران ، وعن أن تلك النفس العنيفة أرخت له ليكون عنيفًا في الرأي ، ممعنًا فيه ، يحبُّ أن يتعمَّقه ، وقد جَرَّهُ هذا التعمُّق إلى ذلك الإسراف في الرأي كما جرَّه الإسرافُ الأول إلى أن يجاوز بالانتقام حدَّه لو كان يملك . وكانت أمه تحسّ هذا العنف منه فتعظه ليرتدّ ليّنًا ، ولكن أباه كان يشجِّعه على هذا العنف ويضربه إن قصّر فيه[1] . وهكذا بدأ الفتى يأخذ عن أبيه ، وينسى ما يأخذه عن أمه ، لأن ما كان يأخذه عن أبيه كان يوائم طبعه ، وماكان يأخذه عن أمه لا يوائم طبعه .

ومن هنا نبدأ نساير جبران المتمرّدَ العنيفَ ، ومن هنا تبدأ سجايا الأم تختفي وتبدأ سجايا الأب تظهر . ولكن هذا الشيء الذي أظهر جبران عنيفًا قاسيًا أظهره ذا موهبة جديدة ، فقد بدأ الصَّبيُّ يدلُّنا على أنه موهوب في شيء جديد ، موهوب في التَّصوير والرَّسم . فحين ضاق بالمدرسة ذَرْعًا تحركت يده لتعبّر عن ذلك الضيّق بالتصوير . وحين يخلو إلى نفسه في بيته كانت تلك الموهبة تحرّك يده ليلتقط فَحْمةً يرسم بها على جدران

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦ .

البيت أشكالاً كان الوالد لا يفهم منها شيئًا، وكان الصَّبيّ يعبّر بها عن شيء في نفسه. كان فكر الصَّبيّ أكبرَ من سنِّه، وكان عقله أكبرَ من جسمه، وكان ما يحيط به وما يُلقَى في روعه أكبرَ من عقله وجسمه؛ فالتبست عليه الأشياء ولم يملك أن يجلوَها برأيه. وما كان الفتى بلغ أن يقول ويكتب، ولكنه كان قد بلغ أن يصوّر، وهو حين يصوّر شأنه حين يقول أو يكتب، هو في كلتيهما يفصح عن ذات نفسه. وهو حين يرسم لا يقوى على الإفصاح ولكن يقوى على الرمز، وإذا هو يصوّر رموزًا لا يعرف الأب لها دلالة؛ ولكن الابنَ كان يعرف لها دلالة لا يملك أن يجلوَها، وحسبه أنها عبَّرت عن نفسه، وصوَّرت ما يجول بخاطره من تلك المعاني المبهمة الغامضة التي أهَّلته لدخول معترك الحياة. و أخذت تلك المعاني تَكْبرُ في نفسه؛ فإذا هو شاعر محبٌّ للجمال، متخيّل يجري وراء الخيال، مفكّر تغلب أفكارُه كلماتِ المقال، مصورٌ يجعل الرمز وسيلةَ بيان لما يقع.

كان الوالد وفتاه لَمّا يبلغ الحادية عشرة يخرج به إلى الجبال ليشقى بين منعرجاتها شقاءه، وليحمل فوق قُنَنها معه عناءه. يبيت معه في خيام البدو بين الأغنام، وعلى فراش وسخ على الأرض، لا يذوق غير ما

يذوق من طعـام ومـاء آسن . يريد الأب ألا يدع ابنه في أحـضـان الأم ينشـأ وادعًـا ناعـمًـا ؛ فـهــذا هو الطـريق للكسب في الحياة. ولا عجب؛ فقد كانت هذه طريقه في الحياة، وتحبُّ الأم حياة غير تلك الحياة لولدها. وكان جبران يرى في تلك المعركة الدائرة بين الأب والأم رأيًا آخر لم يكن قد نضج أو استوى بعد، وترك الأيام تهيِّئُه وترعاه. وكانت الأم قد عقدت عزمها على أن يمضيَ ابنها في تعلُّمه ودراسته، وإذ عجزت عن أن تحقق ذلك لابنها في ظل ذلك الزوج فكّرت في شيء آخر.

كان بطرس قد شبّ شيئًا، وأصبح يستطيع أن يكسب قوته. وكان جبران قد اشتد عوده، وحين رأت الأم زوجها يَصْرف جبران عما أرادتْ له إلى ما أراده هو له بدأت تثير الرغبة الكامنة في نفس بطرس للهجرة إلى أمريكا، واستعدّت مع أبنائها وبناتها ليرحلوا جميعا إلى بوسطن، حيث يقيم نفر من اللبنانيين قد اتخذوا من هذه المدينة مكانًا للرزق وللكسب. وكان بطرس حينما بدأ يرحل فتى في الثامنة عشرة من عمره، وكان جبران حين بدأ يصحب أخاه وأمه صبيا في الثانية عشرة، وكانت مريانا تقرب من العاشرة وكانت سلطانة دون مريانا بعامين. وفي الحي الصيني

جبران في صباه

من مدينة بوسطن نزلت كاملة عام ١٨٩٥ يصحبها أولادها الأربعة تاركة زوجها حيث هو في بشَرّي.

ودفعت الأم بابنها جبران إلى المدرسة، وكانت على حظ من الثقافة هيّأ لخيال جبران أن ينمو؛ إذ كانت تستمع إليه وهو يلخّص لها ما يقرأ، وتستمع إليه وهو يقرأ لها ما كتب، فكانت له الإنسان الأول الذي حبّب إليه أن يقرأ كثيراً ليملأ فراغ الأم، وأن يكتب كثيراً ليسرّ الأم، وحين قرأ كثيراً بدأ يعلم، وحين كتب كثيراً بدأ يتدرّب.

وشجّع جبران على التصوير شيءٌ يشبه تشجيع أمّه له على القراءة، فلقد وصلته مُدرِّسة التَّصوير في مَدْرسته بمصوِّر معروف في أمريكا هو ماجر[1]، وما فتئ جبران أن زاره في مرسمه، ورحَّب المصوِّر بجبران الصبي الناشئ؛ إذ كان جبران عندها في الرابعة عشرةَ. واختلف جبران إلى هذا المصوِّر كثيراً ليعينه ويفيد من خبرته في فَنّه. وكان هذا كله على كُرْه من الأسرة التي كانت تحب لجبران أن يشارك أخاه بطرس في عمل المتجر ويعينه عليه. وفي مرسم هذا المصور عرف جبران سيدة كانت قد قصدت إلى هناك ليصوِّرها المصوِّر. وحين وقف إليها جبران استخفّها

(١) حبيب مسعود اللبناني: جبران حيا وميتا. القاهرة، مطبعة أبو الهول، ١٩٣٢.

شبابه واستخفّتها شرقيّتُه، فأقبلت عليه تستأنسه وتداعبه مداعبةَ الصَّبيِّ الصَّغير، وتسأله رأيه في صورتها. وكانت السيدة في الثلاثين من عمرها، تحتفظ بحظ كبير من جمال، لها زوج من تجار الجلود، يكبرها بنحو من عشرين عامًا، يعرف الحياة من طريق، وتعرفها زوجُه من طريق. يعرف الحياة مالاً يشتري به ما يشاء حتى النِّساء، وتعرف هي الحياة عاطفةً تجمع بين الرجال والنساء. وحين رأت هذه السيدة جبران رأت فيه مرتعًا لعاطفتها فدعته لزيارتها، وعرف جبران في هذه الأعوام تجربة الحب الأول على صورة غير نقية، انغمس فيها دون أن يُعير وصايا أسرته بالاً. لقد نضج جبران وصار الشاعرَ العاشقَ الفنّان.

وتعود أرواح أجداده الفينيقيين تحرِّك في أعماقه عشقَ المغامرة وارتياد البحار، وتملؤه هيامًا بالهجرة والترحال، وتشدّه الشواطئ البعيدة فيعتزم الرحيل، وكأنما هو مشغول بالبحث عن ذاته، وبالهرب من غُربة تثقله بأحاسيس العزلة المُرَّة، وتطوّقه في هذا المنفى الذي يسجن معه العالمَ أجمع. ألم تفطن برباره يانج إلى إحساسه هذا حين صوّرته: «مواطنًا عالميا وسيمًا، كثيف الحاجبين، داكن الشارب، يتموَّج شَعره على جبهته العريضة، وتغرق في التفكير عيناه العسليتان

الصافيتان دون أن يشوبهما زيغ أو شرود. في ملابسه أناقةٌ تنمُّ عن ذوق سليم، تتغير بتغير الظروف والمناسبات، أحسبه في مرسمه الخاص بالشارع الغربي العاشر أحدَ سكان حيّ جرينتش. ولو أني لقيتُه في مؤتمر اقتصادي أوفي حانة بڤيينا أو في وطنه سوريا لوجدته في كل منها متخذاً الصورة الملائمة لهذا المكان أو ذاك. وليس مردّ ذلك إلى قصور في شخصيته، بل إلى إدراكه الفريد وما يملك من مشاركة وجدانية تتخطّى الفروق، وتسمو على الاختلافات، وتعينه على فهم كل بيئة والتلائم معها حتى لا يبدو أجنبيا فيها، أو يشعر بينها أنه غريب»[١].

وعاد إلى لبنان ليستأنف التعليم.

وقبل أن يترك جبران بوسطن إلى لبنان كان فيمن ودَّع هذه السَّيدة، فلقد زارها ليخبرها بعزمه على السفر إلى بيروت ليتقن العربية ـ وكان قد أوشك أن ينساها ـ وليشبع نظره من أرضه وكان قد تشوّق إليها. ولقد كانت عودة جبران إلى لبنان في سنة ١٨٩٧، وحين نزل بيروت دخل مدرسة الحكمة ودرس فيها أربع سنوات أصول العربية والفرنسية. ويشير جبران

(١) Young, Barbara: This Man from Lebanon. New York, Alfred Knopf, 1959.

خليل جبران إلى هذه السنوات الأربع حيث يقول: «أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة، ماذا نفعتك، اشكر ربك فقد نجوتَ من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي، وإنك وإن فاتتك قواعدها لم يَفُتْك جوهرها، واشكر ربك فقد نجوتَ من الصلوات في الصباح والمساء، وقد صلّيتَ في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك، فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن؛ لأن يسوع الذي تحبه لن تجده في كنيسة قط».

وأحب أن أقف هنا قليلاً أمام مقولة جبران لنعرف للفتى شيئين: ضجره باللغة نحواً وصرفًا مما سيظهر أثره فيما بعد، ثم أخذه نفسه بالرّسوم الدّينية التي خطّها صغيراً وتنكّر لها كبيراً، خطّها متأثّراً بالبيئة حين لم يكن له رأي، وتنكر لها حين درس وكان له رأي في الحياة.

وهنا تضطرب المراجع التي بين أيدينا، منها ما يذكر أن جبران بعد هذه الأعوام الأربعة عاد إلى بوسطن ثانيًا سنة ١٩٠٢، ومنها ما ذكر أن جبران خليل جبران خرج في هذه السنة من لبنان أي سنة ١٩٠٢ يرافق أسرة أمريكية، يزور معها مصر والأستانة وأثينا وإيطاليا وروما والبندقية وفلورنسا ثم باريس فلندن.

وسواء كانت الأولى أم الثانية فإن جبران عاد إلى بوسطن قبل أن ينتهي عام ١٩٠٢ ليلحق بالأسرة المكدودة. وفجأة وجد نفسه من جديد في غمار الرَّكْب المرتحل واحدًا من حشد يتنازعه الأمل والقلق، وتتناوشه أيدي المستقبل وأظفار الماضي، طوال رحلة لا تترفَّق به وهو بعدُ شابٌ يوشك أن يكتمل نضجه دون أن يغوص في تجارب الحياة التي تصنع الرجال، ولكنه وحيد بين الرَّكب. لقد نهل من طبيعة لبنان ما ملأ وجدانه، فهو لا ينفك يغمض عينيه ليعيش بين أنحائه ضاربًا بين دروبه، وإذا طبيعة الفيلسوف الكامنة في نفسه تتكشَّف له، فيتأجَّج داخله حوارٌ عميق حول معنى الحياة، كما يستيقظ بين جوانحه حسّ الفنان المرهف، فإذا هو يعيد تشكيل الألوان في حُزَم من الجمال قد لا تجود به الطبيعة أحيانًا. ثم يجد نفسه على أرض العالم الجديد الذي بدا له في البداية حُلْمًا من الثَّراء الفسيح، فإذا هو كَدْح متَّصل، يتحمَّله أخوه في أعمال التجارة التي لا تدرّ الكثير، وتلاقيه أمه بالدعاء والحنان، ولا تضنّ أختاه بالعمل إسهامًا في إطعام الأسرة من أعمال الإبرة. ويُفضي جبران بهمومه إلى الأوراق يجرِّب عليها رسومه الأولى، ويوسوس لها بشعره الوليد؛ فينقطع عن كل شيء ليكتب. غير أن عوامل المحنة ما تلبث أن تتجمع حول أسرته، فيتساقط أفرادها واحدًا بعد واحد كأوراق

الخريف. تموت أخته بالسُّلّ، ثم يموت أخوه بالداء نفسه، ثم أمه، فيصرخ قائلاً: «كان لي ربٌّ وكان مصدوراً، وكنت أداويه بعقاقير الكنيسة وتعاويذ اللاهوتيين. واليوم قضى ولن يُنشر حتى يوم النَّشر. بلى! بلى! لقد مات ربي عندما أمات أختي سلطانة»[1].

وكان كتابه الأول وكان مرسمه الأول كذلك.

جبران والحب

كان جبران جالسًا ذات يوم في معرض أقامه لصوره يشكو إلى نفسه عدم إقبال الجمهور على شرائها، وفيما هو كذلك اقتحمت عليه عزلته سيدة رشيقة أخذت تلقي على الصور المعروضة نظرة فاحصة هنا وهناك. وحين رأى منها جبران هذا الاهتمام سألها إن كان ثمة ما يَخفى عليها، فأجابت: «لا أكْذبُك، إني في حاجة إلى مَنْ يشرح الكثير من هذه الصَور التي هي من الغرابة بمكان، وما أحبّ إليّ وأنا من المولعات بالفن أن أعرف ما خَفي عليّ منها. تُرى مَنْ هو مصوّرها؟» فأشار جبران إلى نفسه، فتقدمت إليه تعرّفه باسمها، وأنها تدير مدرسة مس هاسكل

(١) ميخائيل نعيمة: المرجع نفسه.

للبنات، وتسأله من أي بلد هو؟ فيقول: «لبنان». وهنا تضيف ماري: «بلد الأرز المقدس ومسرح نشيد الأنشاد؟ وأخذت تسائله عن لوحاته صورة صورة، وبدأت تقول وهي مشيرة بأصبعها إلى صورة من تلك الصور: «ماذا تقول هذه الصورة؟ لقد ذُهلت لتَضامّ تلك الأجساد العارية والأسى والحزنُ باد على وجوهها، وكأن قوةّ خفية تدفعها إلى أعلى ثم تَهوي بها إلى أسفل، ثم إذا هي قد شُتِّتَ ما بينها وكأنها ماء نافورة ارتفع في الهواء، ثم ما لبث أن عاد، فانتثر على أرض الحوض قطرات».

وهنا عجب جبران وقال دهشًا: «لست إذًا في حاجة إلى تفسير؛ فما أردت بهذه الصورة غَير أنْ أصورِّ نافورةَ الألم».

وتابعتْ حديثها فقالت: «ولِمَ تُكْثر من تصوير الأجسام العارية؟».

فأجاب «لأنَّ الحياة خُلقتْ عارية، والجسم العاري هو أصدق تعبير عن الحياة، فإذا ما رأيتني أرسم شيئا ما جبلاً أو شلالاً أو غير ذلك على صورة أجساد عارية فإنما أعني أني أرى كل شيء من هذا جزءًا من الحياة العارية».

فسألته: «ولماذا تُكثر من الرَّمز إلى الموت والألم؟».

فأجابها بأن الموتَ والألمَ هما ما خرج به إلى الدنيا، ولا زالا يعايشانه حتى تلك اللحظة. فأسرعتْ تقول: «ما أقرب ما بيننا؛ فثمةَ ما يربط بيننا برباطٍ وثيق، رباط الفن ورباط الألم».

ثم دعته إلى زيارتها بمدرستها على أن يُقيم معرضًا لصوره بها.

وهناك قدَّمتْه إلى مُدرِّسة فرنسية تُدعى ميشلين على حظ كبير من الجمال، وذكرتْ له أن الجميع متفقون على حبِّها وأنها مَلاكُهم جميعًا. وكما أثنت ماري على ميشلين أثنت الفتاة على ماري، وشبَّهتها بالسِّنْديانة يُعشِّش الجميع من حولها على أغصانها، وأنها هي الموئل الذي يَفْزعْنَ إليه في مشاكلهن(١).

وكانت ميشلين حبَّه الأول.

كان حبًّا جسديًّا تُيِّم فيه بالفرنسية ميشلين التي تعمل بمدرسة ماري هاسكل التي تستأثر به روحًا وفكرًا. لقد ربطت العاطفة بين جبران وميشلين برباط متين، عوّض ما فقده في حبه العذريّ الروحانيِّ لماري. كان حبه لميشلين تجربةً من نوع جديد؛ فعلى حين كان يخاطب

---

(١) ميخائيل نعيمة: المرجع السابق، ص ٧٨ ـ ٨٦.

في ماري رأسَها، كان يخاطب في ميشلين قلبها، وكم تمنّى لو أن روحِ ماري حلّت في جسد ميشلين. إن جبران البائسِ النشأة كانت تنطوي نفسُه على ظمأ تمنّى معه لو رشف من كل إناء رشفة، ونهل من كل كأس نهلة، وأن يَردَ كل مورد يقع عليه، وعلى حين كان يحارب الناسَ روح الطمع والشّره ونوازعَ التملّك، كان هو على الضد من ذلك غير قنوعٍ ولا زاهد، وحين وقع فريسة لحبَّيه: حبّه لماري وحبّه لميشلين عاش أسيرًا. كم أثَّر الحرمان في نفس جبران وطغى على ما يمليه من رأي، فإذا ظفر بما يبغيه - على أية صورة كان هذا الظفر - أخذ يبرّر ما بين فعله وقوله من تناقض.

جبران في باريس دارسًا

لعل الحدث الذي كان له شأن في حياة جبران هو رحيله إلى باريس في عام ١٩٠٨ حيث مكث سنتين لدراسة الفن، كانت تعوله فيهما ماري هاسكل. وقبل أن تطأ قَدَما جبران أرضَ فرنسا حلّ بلندن لفترة قصيرة. وحين استقرَّ به المقام في باريس التحق بمدرسة الفنون الجميلة وأكاديمية چوليان. وهناك التقى يوسف الحويك الذي كان رفيقَه بمدرسة الحكمة البيروتية. ولقد رأى جبران وزميلُه معه أنهما

أشدُّ ميلاً إلى المدرسة الكلاسيكية منهما إلى المدرسة التكعيبية، التي كانت ـ يومذاك ـ البدعة الشائعة في باريس. وما لبثا غير قليل حتى اختلفا مع أستاذهما، فتركا الدراسة واقتسما مرسَمًا لهما خاصًا بهما في خريف ١٩٠٩، ومضيا في زيارة المتاحف ومعارض الفن. وكان انتماءُ جبران الفنِّيُّ الحقيقي لجملة من الفنانين الفرنسيين الرمزيين أمثال پوڤيس ده شاڤان وجوستاف مورو وغيرهما، كما كان قد تأثر بالفنان التأثيريِّ وليام تيرنر الذي شاهد أعماله في لندن. ولقد أتيح للوحات جبران أن تَلْقى شيئا من الحظ، فعُرضت له لوحة في عام ١٩١٠ بمعرِض الجمعية الوطنية للفنون الجميلة.

وحينما كان جبران بفرنسا فاجأته ميشلين بزيارة لأهلها في باريس ـ وقد يكون هذا بدافع من الحب ـ وإذا هو بهذا اللقاء ينسى الدنيا، وينسى ماري مع دنياها. وبلغ به الهوى أن عرض عليها أن يعيشا معًا خليلَيْن لا يفترقان أبدا، ولكنها أبت عليه ذلك ولم تجد بديلاً غيرَ الزواج، غير أن جبران القلق لم يرضَ أن يعيش رَجُلَ امرأة واحدة. وكان لا بد لجبران أن يُخْفيَ صلته بميشلين عنّ ماري حتي لا ينقطع ما بينهما من وَصْلٍ، وأحسَّتْ هذا منه ميشلين، وكانت قد

حملت منه، فسألته: «ما بالُكَ تحاول أن تكتم عن ماري ما بيننا من صلة، وهذا الذي أحمله في بطني منك شاهد على مابيننا، ولن أجيبك إلى ما طلبتَه منّي من أن أقتله وئيداً في أحشائي حتى لا يفتضح أمرك معي؟» ويفزع جبران لقولها ويستحلفها أن تعاونه على أن يظلَّ ما بينهما مكتومًا، ولا سبيل إلى هذا إلا بالخلاص من هذا الجنين، فتستجيب لتوسلاته درءاً لفضيحة مرتقبة. ثم يفترقان وتعود هي إلى أمريكا حيث تتزوج، وتستقر حتى تدركها الوفاة عام ١٩٣١ بعد ستة أشهر فقط من وفاة جبران.

وقبل أن يترك باريس عام ١٩١٠ التقى جبران الكاتبَ والشاعر اللبناني أمين الريحاني؛ وإذ كانت ميولهما واحدة فما لبثا أن أصبحا صديقين، فرحلا معا إلى لندن يصحبهما مواطِنهما الفنان يوسف الحويك. وهناك وضعوا الأسس التي تكفل في رأيهم نهضة العالم العربي من كبوته. وكانت الركيزة الأساسية لبرنامجهم هي حتميّةُ الوفاق بين المسلمين والمسيحيين العرب؛ فعليها ينبني مستقبل الشرقِ الأدنى كلّه. وكان مما يؤرِّقهم هذا النزاع الدينيُّ بين الطوائف المختلفة، القائم على التعصب المقيت. وَتَخال هؤلاء الثلاثةُ أن في تشييد دار للأوبرا في بيروت تعلوها قبّتان: قبّةٌ ترمز للإسلام وَقبّةٌ ترمز للنصرانية ـ مدعاةً

«ميشلين»

للوفاق بين المسلمين والنصارى. ومع أن حُلْمَهم لم يتحقق فحسبُهم شعورُهم هذا الذي عبَّرت عنه مؤلَّفات جبران الناضجة التي جاءت بعدُ[1].

جبران وماري هاسكل

وإذا كان حب جبران «لماري» قد يسَّر له الذّهابَ إلى باريس لمواصلة دراسة الفنِّ فيها لمدة سنتين على نفقتها ـ فقد يسَّر له بعد ذلك نشْرَ مقالاته وكتبه بالإنجليزية. ولولا أن «ماري» دخلتْ حياة «جبران»، ما كنا ندري: هل يستطيع هذا الفنان العربيّ المهاجر أن يجد الوسيلة التي يخاطب بها قومًا غيرَ قومه بلسان غير لسانه؟ ذلك أن «ماري» كما دفعت بجبران إلى مواطن الفن في باريس وعواصم أوروبا، دفعت به كذلك إلى التعبير عن نفسه بالإنجليزية بجوار ما عبَّر عنها بلسانه العربي، فأضافتْ بذلك ثروةً جديدة إلى أدب «جبران»، فكانت تُقوِّم أسلوبه الإنجليزيَّ، وتحفزه إلى المثابرة على الكتابة، وترى في ومضاته النابضة بشيراً بقلم عظيم. فلما فعل وتحقّق له حلم كبير، خفّ في نفسه بعضُ ما كانت تعانيه. لقد كان من قبل كاتبا يمثّل

(1) Bushrui, Suheil: Kahlil Gibran of Lebanon. Gerrads Cross, Colin Smythe, 1987. pp. 29, 30.

مدرسة في المهجر يفخر بها أهله وعشيرته، ولكنَّ أهله وعشيرته كانوا يعيشون بعيدًا، فلم يكن يحسّ كلما كتب أثرَ ما يكتب فيمن حوله من الناس، ولعل هذا كان يُشْقيه. لقد كان يريد أن يكون شيئًا هاما حيث يعيش، كما أصبح شيئًا هاما حيث لا يعيش، وتحقَّقت له الأمنية. وكانت «ماري» أيضًا هي التي حقَّقتها له.

لم تكن ماري واسعةَ الثّراء، ولكنها كانت تحتجز له ما تضنّ به على نفسها، و ظلَّت تُعينه بعد عودته من باريسَ، وترفض أن يعمل بالصحافة ليظلّ وقته كله خالصًا لإبداعه الفني. فقد كانت مشغولةَ الفكر بخلقه الفنّي، حريصةً على أن يبلغ مستوًى يشدّ إليه أنظار العالم؛ إذ «كانت تؤمن أن جبران يرقى بإنتاجه إلى ما فوق المستوى البشريّ، وتعدُّه واحدًا من طليعة تجمَعُ بين المسيح وبوذا وميكيلانچلو وشكسپير»(١). وكانت «تجلس بين يديه جلْسَةَ التلميذة الوفية المتغنّية أبدًا بفضل المعلّم، والحَواريَّة المؤمنة بإخلاص»(٢). كانت تعرف أبعاد شخصيَة الفنان، ومَيله إلى المزج بين الخيال والواقع حتى ينزلقَ فكره إلى أحلام اليقظة كلما قسا عليه الندم من حرمان لم يترفَّق به، وكلما شاء أن يحيا

---

(١) توفيق صايغ: أضواء جديدة على جبران. بيروت، الدار الشرقية للطباعة والنشر، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

في فرحة من صُنع يديه بعد أن انسدّت أمامه السبل. وكانت تدرك لحظات الإشباع النَّفسيِّ التي يجتذبه فيها الحديث عن نفسه، فيصوّر جسدَه الناحل قويا فتيا، ويصوّر فقرَه الحاليّ ثراء محتجزًا في وطنه. فكانت تتقبَّل مبالغاته ومغالاته كلَّها في رضًا وامتثال، وهو يتحدث عن عظمة أسلافه وثرائهم، وعن البحبوحة التي كان يرفل فيها طفلاً وصبيا، وعمق الثقافة التي كانت صفةَ أمِّه ورثتها عن آبائها، وانتفاضة الوطنية التي وضعته في صدارة الحركة القومية المطالبة بالحرية لوطنه من قبضة الأتراك، وخصوبة خياله التي تجعله يرافق المسيحَ في الأحلام، وصدق نبوءته التي يستشفّ بها المستقبل فإذا به أمام عينيه مفتوح الأبواب.

هكذا كان جبران نَزَّاعًا إلى المغالاة إذا تحدّث عن نفسه، سواء لمن يعرفه أو لمن لم يعرفه. وعلى الرغم من أن ماري كانت تعلم عنه الكثير إلا إنه بطبيعته تلك - كأنه أُنْسي أنها تعرف - لم يكفّ. ويعلِّل هذا إخصائيّ نفسيْ فيقول: «إن ذلك رَدُّ فعل لإحساس بخَواء نفسيّ»، ومن هنا كان إسقاط جبران على نفسهَ تلك الصفات المبالغ فيها؛ لكي يبدوَ بها مُتَمَيِّزًا عمّن سواه. وأكثر ما تكون هذه المغالاة إذا كان الحديث إلى امرأة يريد المرء أن يخطب ودَّها، ويملك نفسها. وإذ

كان جبران لا يملك كثيراً من أسباب امتلاك المرأة من مال أو جاه أو نسب أوفحولة ـ فقد كانت تلك المغالاة وسيلةً يعوّض بها ما افتقد. والناسُ في هذا على درجات متفاوتة، فلا ضير إذًا على جبران إذ كان على تلك الصفة من المغالاة».

وفي الوقت ذاته كان جبران يعيش صراعًا داخليا عميقًا؛ فهو يذكر لماري هاسكل أنها طوّقت عنقه بعطائها، وأشبعت روحه بحبها المتجرّد من كل غرض. فهل يتزوجها جزاء ما أسدت إليه من عطاءٍ ماديٍ وروحيّ أم ينصاع إلى ما تنطوي عليه نفسه من عزوف عن أن يعيش في ظل امرأة واحدة؟ لكن روحه الشرقية المؤمنة بالعرفان بالجميل تُملي عليه أن يتزوج منها، فيعرض عليها الزواج بعد عودته إلى بوسطن بأسابيع؛ وهو في قرارة نفسه غيرُ راغب فيه، إلا أنها تردّه معلّلة ذلك بأنها تكبره بعشرة أعوام؛ مما يعجّل بها إلى الشيخوخة في مرحلة تلحّ عليه فيها فورة الرجولة، وقد تجتذبه بعيداً عنها شابة فاتنة تفجّر ينابيع إلهامه، فتثير فيها عداءً لا تحبُّ لنفسها أن تخوضه. وهي تقول ذلك مع ما كانت عليه من «جمال في التكوين وسحر أنثويّ خبيء يعترف لها دائما أنه يستثير الرجال»[1].

---

(١) ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران، ص ٦٨.

لم تكن ماري تجهلُ ما في نفس جبران من قلق؛ فآثرت أن تعيش معه صداقة متينة على أن تعيش معه حبًا ما أسرع أن ينفض جبران يده منه. ويعاود جبران عَرْضَ الزواج، وتعاود هي الاعتذار، ويهمس لها: «إنك تطيرين بعيدًا كلما حاولتُ الاقتراب منك». فتجيبه قائلة: « حيثما أمض آخذك في رفقتي. ينبغي أن نُضحّي بعلاقة جسدية سَقيمة لكي تبقي لنا دائمًا صداقُتنا الوطيدة.. أكذبُ لو ادعيتُ أني لا أتحرَّق شوقًا للزواج منك.. »[1]. إنه يدهشنا هو الآخر حين يحدِّثها عن أن تاريخ العالم لم يفسح إلا مجالاً نادرًا لزيجات حقيقية، وليس يعني إنجابُ الأطفال إنجابَ الحياة، وما أسعد النباتاتِ لأنها لا تعاني من ضغوط الحياة الاجتماعية!

وليس شكٌّ في أنه كان حريصًا على علاقته بماري، وهو الذي أفاد منها أكبر فائدة في حياته. ومع ذلك فإن حبه لها مع كلِّ ما بلغه من صدق وتوْق لم يبلغ يومًا عظمةَ حبها له وتضحياتها من أجله خلالَ عُمر كامل. وهل كان من الممكن أن نُصدِّق أن شخصًا يحبُّ حبا عميقًا يقبلُ على الفور زواج مَنْ يعشقها بشخص غيره مثل ما حدثَ منْ جبران مع ماري؟ ثم إننا لا يمكن أن ننخدعَ في عَرْضِه الأولِ عليها بالزواج، ولسنا نشك

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨.

في أنه كان يعرف بذكائه أنها لن تستجيبَ لعرضه. وها نحن أولاء نراه ما يكادُ يسمع برفضه الزواجَ حتى يهرع إلى امتداح علاقتهما وصداقتهما، ويقول لها صراحة: «أما وعندنا الشيء الكثير معًا فما أكثر ما يجمعنا من أشياءَ متشابكة! لقد اتحدنا معًا دونما جماع، وأثبت اتحادُنا أنه لا يتوقف عليه، فأيّة حاجةٍ بنا لأن ندفع مثل هذا الثمنِ لشيء ثانوي؟»(١).

ونعود فنتساءل عن هذا الشيء الثانوي: أهو الزواج عند جبران أم أن الزواجَ هو الثمن وأن الشيء الثانوي هو الجماع؟ لقد حرصتْ ماري في النهاية أن تنال هذا الشيء الثانويَّ مع رجل آخر، وأن تدفع في سن الخمسين هذا الثمن الذي تخاذل عن دفعه جبران طوال أعوام شبابه. ولعلنا مُحقّون حينما نطرقُ أبواب مدرسة التحليل النفسي لنهتديَ على ضوئها إلى تفسير لمسلك جبران مع ماري. هذا التفسير هو ما يسمّيه علماؤها بالموقف «الأوديبي»، فجبران صاحب الحسّ المرهف فَقَدَ أمَّه صبيا، ووجد في عالم الغربة امرأة تكبره بعشرة أعوام؛ إذا كان فيها من فتنة الأنثى ما يثير حسَّه فقد كَان فيها من حنان الأم ما يجعله طفلاً وديعًا بين يدَيْها. أولم يقل في إحدى رسائله لماري: «أملي أن

(١) المرجع السابق، ص١٠١.

تكوني المرأةَ التي تهجع فيَّ أما صغيرةً»؟(١) لقد كانت رغبته في أن تكون له أمّ رغبة عنيفة وحادة، إذ كان يتمنّى أن تسكن أمه أعماقَه دومًا، وهكذا ارتبط ارتباطًا مَرضيا بماري، فهي في جزء منها أمُّه. ولما كانت مضاجعةُ الأم أمرًا محرَّمًا فمن المنطقي أن يُصاب الرجل بالعنَّة والضعف الجنسيّ إذا ما حاول معاشرة امرأة تمثّل الأم بالنسبة له. وهل هناك شك في أن ماري بلغت بحنانها معه ذروةَ الأمومة التي كان يهفو إليها حتى يخايله طيف أمّه كلما دنا منها، فتذوب رجولته لتستيقظ مكانها طفولته؟ ولعل علاقته الطبيعيّة بميشلين التي كانت تصغره سنا دَعْمٌ لهذا التفسير النفسي، ولعل رسومَه أيضا تكشف عن تشوّفه المحموم إلى تلك الأمومة بنقائها وصفائها.

وفي سنة ١٩٢٢ أفضت ماري إلى جبران أنها قبلت أن تتزوج چاكوب فلورنس مينيس وكان في التاسعة والستين من عمره، ثم أخذا يراجعان معًا تاريخ علاقة كلٍّ منهما بالآخر. وبعدها قال لها جبران: «لسوف أظلُّ على حبّك إلى الأبد؛ فلقد كانت علاقتي بك هي علاقة الروح بالروح. وعلاقة مثلُ هذه لا ينال منها

(١) المرجع السابق. صفحة ١٠١.

الزمن كما لا تنال منها الأحداث، حتى لو تعدَّد زواجُك فبلغ سبعًا»(1).

وكان زواج ماري سنة ١٩٢٦، وإذا العلاقة بين جبران وماري بعد هذا الزواج تتراخى شيئًا فشيئًا، وكان هذا أمرًا طبيعيًا؛ إذ شُغلت هي بأسرتها الجديدة. ولكنها على الرغم من هذا لم تنسَ جبران، فلقد ظلَّت تمدُّ له يدَ العون، فتراجع ما يكتب قبل نشره وبعده. وما من شكٍّ في أن ماري هي التي ألهمتْ جبران فكرة العرَّافة «ألْمِطْرا» صديقة «المصطفى» في كتاب «النبي».

ويَحُمُّ قضاءُ جبران سنة ١٩٣١ وتخفّ ماري إلى بوسطن لتلقاه وهو مُسْجى داخل تابوته يوم جنازته. وقبل أن يُخَلِّف جبران الحياة ترك كل أعماله الفنية حتى مرسمه هبة لماري التي امتد بها العمر فودَّعت الحياة سنة ١٩٦٤، بعد أن أتمت التسعين من عمرها. ولا نزاع في أن خلود جبران كان خلودًا لماري هاسكل في الوقت نفسه، فهي التي رَعَتْهُ بسخاء في جميع خُطى حياته. وأكاد أقول إنه لولا ماري لم يكن جبران ذلك الأديبَ الملحوظ.

---

(1) ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران، ص ١٠١.

تلك كانت حكايته مع ميشلين وماري هاسكل، أما حكايته مع ميْ زيادة فقد نهجت نهجًا مغايرًا، وسلكت طريقًا مخالفًا: فَمَيْ تلك الفتاة الفلسطينية المولد، اللبنانية التعلُّم، المصرية الإقامة - ما لبثت بعد أن استقر بها المقام في القاهرة أن اتخذت من بيتها منتدى يؤمه أقطاب الفكر والأدب في ذلك الحين، من أمثال أحمد لطفي السيد، وطه حسين، وعباس محمود العقاد، وأنطون الجميل، وشبلي شميل، ومصطفى صادق الرافعي، وإسماعيل صبري، وسلامة موسى، وغيرهم. ويبدو أنه قد كان لها في قلب كل منهم مكانة ومنزلة، ولكنها لم تبادل أحداً منهم حبا، ولم تُطمع أحداً في قلبها[1]. بَيْد أنها ما كادت تسمع الحديث الدائر في منتداها عن جبران وأدبه - حتى تشوّقت إلى معرفته، وكان أول ما قرأت له مقالة كتبها في السادس من كانون الأول «ديسمبر» عام ١٩٠٨، وعنوانها «يوم مولدي»[2]، فأعجبت بها، ولم تقنع بقراءتها؛ وإنما راحت تستطلع سيرة

---

(١) صالح جودت: بلابل من الشرق. القاهرة، دار المعارف، (اقرأ - ٣٥٥) ص ١٣٦.

(٢) المقالة في كتابه: بلاغة القرن العشرين. بيروت، المكتبة الثقافية، د. ت.

صاحبها، وتتعرّف أنباءه، فزادها ذلك شوقًا إلى التعرّف به، وتحيّرت في السبيل التي تسلكها إلى هذا التعرف. وبينما هي تطالع إحدى قصصه جاءها الحل: لماذا لا تكتب إليه مبدية إعجابها بأدبه؟ غير أنها ظلت متردّدة بين الإقدام والإحجام، تخشى أن يهمل رسالتها، خاصة وهو تلميذ نيتشه المتجبِّر. ولكنها سرعان ما قضت على هذا التردّد، وأقنعت نفسها أنها أديبة تكتب لأديب، ومن ثم كتبت إليه في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩١٢ أول رسالة تقول فيها: «أمضي مي بالعربية، وهو اختصار اسمي، ومكون من الحرفين، الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري. وأمضى (إيزيس كوبيا) بالفرنجية؛ غير أن لا هذا اسمى ولا ذاك. إني وحيدة والديّ وإن تعددت ألقابي»(١).

وفي سرعة سريعة جاءها من جبران رَجْع جوابها، ويحمل ثناءه عليها، ويحدثها عن نفسه وعن كتبه، ويُرفق به آخر ما كتب «الأجنحة المتكسّرة» طالبًا منها أن تبدي رأيها فيه.

ويبدو أن ميْ قد سعدتْ بما بلغت، فنشطت لقراءة الأجنحة المتكسّرة، وأخذت تسطر لجبران رأيها فيه، وتناقشه في موضوعه، وكان من بين ما كتبت له:

---

(١) جميل جبر: مي وجبران. بيروت، دار الجمال، ١٩٥٠. ص ٢٣.

«. . ولكن إذا جوّزنا لسلمى ـ ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموٌ وذكاء ـ الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها؛ فهل يصحّ لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة أن تختار لها صديقًا غير زوجها، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب؟»(١).

وتوالت الرسائل بينهما، لم تنقطع غير تلك الفترة التي اشتعلت فيها الحرب العالمية الأولى، وتوثّقت عرى الصداقة بينهما، على الرغم من أن كلا منهما لم يحظ برؤية صاحبه، حتى إن جبران آثر «ميْ» بإلقاء كلمته التي شارك بها في الحفل الذي أقامته الجامعة المصرية لتكريم خليل مطران، وكان قد بعث بها إلى سليم سركيس منظّم المهرجان.

وأنشأت ميْ تعرض أعمال جبران في الصحف، وتناقشها مناقشة جادة، وتنقدها في حيدة تامة، لا تعرف تصنُّعًا ولا مواربة، ولا يشوبها تكلّف أو مجاملة. وكانت رسائلها إليه أشدّ صراحة، وأقسى لذعا. وكان جبران لا يضيق بذلك؛ بل يجد فيه بعض

(١) المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.

ما افتقده بتراخي العلاقة بينه وبين ماري هاسكل، وكان يقيم لرأيها النقدي وزنًا، وكثيراً ما بعث إليها يبرر بعض ما كتب، ويعتذر من بعض آخر، كما حدث في ردّه على نقدها لكتابه «المجنون»، أو يبرأ من «اقترافه جريمة نشره» كما حدث في كتابه «دمعة وابتسامة»[1].

ويبدو أن توالي الرسائل بينهما، وحرص مي على متابعة أعمال جبران، شجّعه على أن يكتب إليها يطلب أن تزوره في بوسطن، ويشفع ذلك بأنه يحسّ حاجة قوية إليها، لما يعانيه من ألم الوحدة، ومرارة الاغتراب. ولكن صدى هذه الرسالة كان سيئًا، فقد ثارت ميْ لكبريائها، وغضبت لكرامتها، وبعثت إليه تعنِّفه وتلومه لومًا شديداً؛ فأجابها بأنها قد أساءت فهمه، ولَوَت قصده، وراح يعتب عليها عتبًا رقيقًا. ثم انشغل عنها فترة، وهو يعدّ كتابه «السابق»، فأخذ القلق يقضّ مضجعها؛ فقد تكون قسوة لهجتها في رسالتها قد آذت مشاعره إيذاء ممضا، فبادلها غضبًا بغضب، وآثر الصمت والانقطاع.

ولذا نهضت تكتب له، وتعتذر عمّا سبّبت له من ألم وضيق، وتعلن إليه أنها تحبه دون غيره من الذين

---

(1) المرجع السابق، ص ٣٩.

التفّوا حولها من الأدباء والمفكرين. وكان هذا الإعلان مثار دهشة بالغة لدى جبران، فلم يكن يذهب إلى ما تذهب إليه، ولم يكن يفكر فيما تفكر فيه؛ وإنما كان مطمحه هذه الصداقة الفكرية التي توطّدت أركانها، وهذه الصلة الروحية التي توثّقت عراها، ومن ثم كتب إليها يفصح عن حقيقة مطمحه، ويعلن إليها جليَّة أمره.

وتلاحقت الأيام سراعًا، والمرض يشتد بجبران، والأحداث تنزل بمي، فتفقد أبويها، وتكتب إليه حزينة ملتاعة: «لم يبق إلا أنت أيها الصديق» ولكن الموت لم يبق لها هذا الصديق، فانتزعه منها انتزاعًا جعلها تفقد لذّة الحياة، وتستوحش منها استيحاشًا قويا، لم يخرجها منه تطوافها في البلدان، فآثرت العزلة والانفراد، فلا تكاد تلقى غير الحميم من الأصدقاء حتى وافتها المنية بعده بعشرة أعوام.

المناهل التي نَهَلَ منها جبران

تعرّف جبران في رحلته إلى باريس بالمثّال «أوجست رودان»، فأعجب بالفنان وتماثيله ومن بينها اليد البشرية المجسَّمة التي أطلق عليها رودان «يدُ الله»،

فقال جبران في نفسه: «أهو الله خلق الإنسانَ أم الإنسان الله؟ ليس من خالق إلا الخيالُ. وأظهر مجالي الخيال الفنُّ. الفن هو الحياة والحياة هو، وكل شيء يهون في سبيله، لا مجدَ إلا منه، ولا جمال إلا فيه»(١).

ولم ينقطع إعجابه برودان قطُّ، فقد كان لعبقريته جانبان: جانبٌ إبداعيٌّ يُضفي على الجمال أبدعَ صورة، وجانبٌ ينزع إلى إسباغ الغرابة اللافتة. كما كان يرى أنه ذو وعي يفوق وعي غيره من الفنانين، يخلق في المشاهدين قدرة على استيعاب ما تنطوي عليه الحياة، فيصبحون أقوى إدراكًا لما فيها.

كذلك كان جبران شديد الإعجاب بليوناردو دا ڤنشي، ويعدُّه أروعَ مَنْ جادت به الحياة، ويقارن بينه وبين رودان. وقاده رودان في إغراء إلى معرفة «وليم بليك» فتأثَّر بكتاباته إلى أبعد الحدود، وأصبح «وليم بليك» بما ألَّف وما صوَّر وما خلَّف مَثَلَه الأعلى في الحياة، فيقول عنه: «بليك هو الرجل، هو الإنسان ـ الإله. إنه في رأيي أعظمُ إنجليزيّ منذ شكسپير، ورسومُه أعمق بما لا يقاس من أية رسوم أنتجتها إنجلترا، ورؤياه ـ بصرف النظر عن رسومه وقصائده ـ

(١) ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران.

«الكفّ الحزينة»

أكثرُ الرؤى إلهيَّة. لكن لن يتسنّى لأيِّ امرئ أن يتفهم بليك عن طريق العقل؛ فعالَمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين، ولا يمكن أبدًا أن تراه العينُ ذاتها»[1]. وهكذا لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون للشاعر الفنان وليام بليك والمثّال أوجست رودان أثرهما في جبران، حتى إنه صوَّر نفسه ذات يوم على أنه «ويليام بليك القرن العشرين». والغريبُ أن هذه العبارة كانت شائعةً من قبلُ على ألسنة الناس، وكانت تعني رودان، ولعل جبران قد استعارها لنفسه.

وصعد جبران بشاعر واحد فوق القمة التي وضعَ فيها بليك، هو شكسپير الذي خَصَّه بإجلال وإعجاب لم يخصّ بهما غيرَه. وكان يتوقُ أن يؤلّف كتابًا عنه فلم تُعِنْه ظروفه على ذلك.

وإذا كان «جبران» قد أحبّ «كيتس» فإنه لم يحبَّ له أن يرقى إلى مكانةشكسپير. أما حبه لشلي فقد نبع من إعجابه بعالمه «القائم بذاته، والذى تسيطر عليه روح إله منفيّ، يقضي وقته في التغنّي بذكريات عاشها في عوالمَ أخرى. لكنه يعدُّه مع ذلك أكثرَ شرقية وأقلَّ إنجليزية[2].

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٢.

(٢) ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

وكـذلك أشـاد جبـران بالشـاعـر سـوينبيـرن ونَعَتَـهُ «بالإغـريقيِّ روحـًا أكثر منه بالإنجليزي. . وانه شامخ، وأنه ضوءُ النهار بينما الآخرون الغسَقُ»(١).

ويقرأ إبسن، ويرى أنه شاعر خالد، غيـر أن جبرانَ ينحّي برنارد شو، ويرى في كثير من أعماله «مزيجًا من المزاح والشعوذة»(٣).

فلمـا عـاد إلى الـولايات المتحـدة، واتَّسـعت آفـاقُـه ودخل «نيـتشـه» حـياتَه، ومنْ بعـده «زردشت» نيتشـه بتعـاليمه وفلسفـته، نسي «بَليك» ولم يَعُدْ أمامه غيرُ «نيتشه» و«زردشت».

وأكثرُ ماأعجَبَ جبران في نيتشه هو تمرُّدُه على كلِّ المقـدسـات، هـذا إلى مـا تميّـز بـه أسلوبُه الصـريحُ من تعبيرات لَمّاحة تنبضُ بالحياة.

وبعد أن كان «جبران» يسيل رقةً في عواطفه، أصبح يهيم بالقوة في كتابات «نيتشه»، بل أنكرَ ماكان يؤمن به أيامَ شبابه، وبخاصة مفهومَ الحب، وقد أصبح عنده سيادةً واستعلاءً. وبلغَ تأثُّر «جبران» بنيتشه وزردشت حـدا جـعـله يجـيـب على صـديق طلبَ إليـه أن يجـمـع مقالاته العاطفية «دمعة وابتسامة» في كتاب قائلاً:

---

(١) المرجع السابق، ص١٠١.
(٢) المرجع السابق، ص١٣٦.

ذاك عهدٌ مِنْ حياتي قد مضَى   بين تشبيبٍ وشكوى ونُواح

وقد كتب في المعنى نفسه إلى «ميّ» قائلاً:

«لا تذكري أعمالي الماضيةَ؛ لأن ذكراها تؤلمني؛ لأن تفاهتَها تُحيل دمي إلى نار محرقة؛ لأن جفافَها يولد ظمئي؛ لأن سخفَها يقيمني ويُقعدني كل يوم ألفَ مرة ومرة. لماذا كتبتُ تلك المقالات والحكايات؟ لماذا لم أصبر؟ لماذا لم أضنّ بالقطرات فأدَّخرها وأجمعها ساقية؟ لقد ولدتُ وعشت لأضع كتابًا واحدًا، لا أكثر ولا أقلَّ. لم أبقَ صامتًا حتى تلفظَ الحياة تلك الكلمة بشفتَيَّ، لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارًا فَيا للأسف ولَلعار! وبقيتُ ثرثارًا حتى أنهكت الثرثَرة قُواي، وعندما صرتُ قادرًا على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتُني ملقىً علي ظهري، وفي فمي حجر صلد».

ويهمس لها ثانية: «أما تعلمين يا «ميّ» إني ما فكرتُ في الانصراف الذي يسمّيه الناس موتًا إلا وجدت في التفكير فيه لذةً غريبة، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل؟ ولكني أعود فأذكر أن كلمة لا بد لي من قولها. لا، لم أقل كلمتي بعدُ، ولم يظهر من هذه الشعلة غيرُ الدخان، وهذا يجعل التوقف عن العمل مرًّا كالعلقم. أقول لك يا «ميْ» ولا أقول لسواك، إني إذا ما انصرفتُ قبل هِجاء كلمتي ولفظها فإني سأعود

لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي».

ولعله رأى في نيتشه الرجل الذي سبقه إلى عالَم كان يريد أن يكون رائدَه. لقد أحسَّ وحشةَ نيتشه ووحدتَه خلال القرن التاسعَ عشرَ، وأدرك تفرُّده في خلقه الذي بلغ فيه مبلغ إبسن، وفي ميله إلى التدمير الذي لم يُسبق إليه. هو عنده ديونيسوس دون خمر، وإنسانٌ أعلى حبيس الغابات والحقول. ولقد اعترف مرةً لماري هاسكل وفي صراحة لم تمنع شبحَ بَسْمة من أن تطلَّ على وجهه: «كم أكره ذلك الرجلَ الذي انتزع من رأسي الكلمات، وقطف ثمار الشجرة لحظةَ اقترابي منها. حقا لقد تقدم عصرَه بثلثمائة سنة، أما أنا فسأنبتُ شجرةً أظلّ أقطف من ثمارها ستمائة عام».

على أن «جبران» ـ مثله مثل أيّ فنان ـ عرف كيف يَلْقَنُ فن «نيتشه»، ودفعه الإعجابُ بنيتشه إلى أن يحاول أن يكون هو أيضًا «نيتشه» جديدًا. ولكن «جبران» الشاعر لم يستطع أن يصبح صورةً حقيقية من «نيتشه»، وحينما حاول أن يرتديَ ثوبه كان واضحًا أن هذا الثوبَ مستعار، وظلت الصلةُ بينهما قائمة على الخيال والقالب.

فإذا كان جبران قد حاكى في كتابه «النبيّ» نيتشه في كتابه «هكذا تحدَّثَ زردشت» فقد حاكاه في الشكل لا في المضمون. فكما اتخذ نيتشه من زردشت وسيلةً لإذاعة آرائه ـ كذلك اتخذ جبران «المصطفى» في كتابه «النبيّ» وسيلةً للتعبير عن أفكاره واتجاهاته. وكما أجرى نيتشه على لسان زردشت حكَمًا وأمثالا ـ كذلك أجرى جبران على لسان المصطفى سلسلة من العظات، وكانت الحكمُ والأمثال التي قالها كلاهما إجابةٌ لأسئلة مطروحَة من المستعمين. وكان كلاهما ـ زردشت والمصطفى ـ غريبًا عن وطنه، نزل بين قوم غير قومه، وأخذ يعظهم ويفيض عليهم من حكمته وفلسفته، ثم لم يلبث هذا وذاك أن عادا أدراجهما إلى حيثُ كانا في جزيرتيْهما النائيتيْن. غير أن تعاليم زردشت لا شكَّ في أنها تختلف في جوهرها عن تعاليم نبيٍّ جبران: فعلى حين يبشِّر زردشت بالإنسان الأمثل «السّوبرمان» وأخلاقيّات السادة، ويَشْجُبُ الأخلاق التقليدية وبخاصة الأخلاق المسيحية؛ لأنها أخلاقيات تعادي الممتازين لحساب الضعفاء ـ يدعو «المصطفى» أهلَ أورفاليس إلى الإيمان بقدرة المحبّة، التي تربط بين الجميع، على شفاء كل جروح النفس، وإلى وحدة الوجود التي تَمُتُّ بِصلة إلى التراث التقليدي للمتصوفة المسلمين.

غير أن نفس جبران القلقة لم تطق صبرًا على فلسفة «نيتشه» فعاد كما كان . . فنانًا يؤمن بأن الفن هو أن نفهم الطبيعة، وننقل معانيها لمن لا يفهمونها. فالفنُّ أن نعكس روح الشجرة لا أن نرسم جزيئاتها، وأن نأتيَ بضمير البحر لا أن نصوِّر أمواجه بتلاطمها، وأن نرى في المألوف ما ليس مألوفًا. والشِّعرُ ليس رأيًا تُفصح عنه، بل هو أغنية تفيض من جرح دامٍ أو فم باسم. والجمال هو ما نراه فنودّ أن نعطي لا أن نَأخذ. ونحن إنما نعيش لنهتدي إلى الجمال، وكل ما خلا ذلك لون من الانتظار. والجمال أوسع إشراقًا في مهجة مَنْ يشتاقه منه في مُقلة من يراه.

وقد يبدو من هذه المتناقضات في «جبران» أنه كان إنسانًا شاذا، والحقيقة أنه كان إنسانًا طبيعيا يحيا بلا تصنُّع، ويترك نفسه على سجاياها بما فيها من خطأ وما فيها من صواب، والفرق بينه وبين سائر الناس أنه كان عَلَمًا ذائع الصيت، وأنه صدَقَ في التعبير عن آثامه وانفعالاته بالناس وبالظروف أيضًا.

لقد كان جبران رومانسيا، وإن ظهر متأخرًا عن روّاد الرومانسيّة. لم يدرك الرومانسية في مطلعها؛ بل أدركها عند أفولها، فوجد بين يَدْيه ميراثًا حافلاً وزادًا ثراً يجتذبه ويأسُره، ينطوي على صورة لنفسه وفكره

ومزاجه، وجد فيه غذاء روحه الذي أقبل عليه يتمثَّلُه في حب وصبر ويمزج به تجربتَه الذاتية، ويتفاعلُ معه بأفكاره وملاحظاته وتأملاته، ثم يُبدع بدوره أدبًا يحمل روح الرومانسيين وفكرهم، ويكشف إلى جانب ذلك عن شخصيته المتميّزة الفريدة التي تبرُزُ متألقةً كأنها روح نبيٍّ يهمسُ بالحكمة، ويبثُّ السلوى، ويحرِّك الأمل. وهكذا لم يحتذ جبران من التيارات الأدبية تيارًا بذاته؛ بل أضفى على ما يروقه من تلك التيارات روحَه ووجدانه، فخرج بأسلوب ليس من صُنع القديم، ولكنَّه مزيج بين جهدين: جهد مضى، وجهده هو الذي خلق من ذلك الموروث طابَعًا جبرانيا جديداً.

فمع تأثُره بچان چاك روسو وڤولتير وألفريد ده موسيه وشاتوبريان ولامارتين وڤيكتور هوجو، ومع تأثره بنوڤاليس وكليست وهولدرلين وجوته ونيتشه، ومع تأثره بويتْمان وإمرسون، ومع تأثره بكيتس وشلي وكوليردچ وورد زورث وبليك ـ فإنه لم يتأثَّر بذاتيَّة فرد منهم ـ إلا في القليل ـ بل بالتيار الدافق الذي يسري بين أفكارهم جميعًا. تأثَّر بهذا الخيط الذي يشدُّهم ويجمعهم. تأثر بالاتجاه في عمومه لا في تفاصيله، وإن يكن قد كتب بضعَ قصائدَ تحمل ألفاظ

كيتس وأفكاره، وأخرى تغترف من أفكار شلي ـ فما كان ذلك إلا تواترًا بين أفكار شخصيتيْن متماثلتيَ الاتجاه والفكر، أو اختزانًا في ذاكرة وافرة الاطّلاع لم تحسّ فارقًا بين فكرها وفكر مَنْ أخذت عنَه، وما أكثر ما يدين به الأدباء لغيرهم من الأدباء.

على أن التجربتيْن الرئيستين في حياة «جبران» اللتين كوّنتا فكره ومزاجه، وأقامتا الروابط الفكرية والروحية بينه وبين الكتّاب والأدباء ـ هما تجربتا الحبّ والغربة.

أخذ يتعمّق أفكاره هو عن الطبيعة، وبراءة النفس البشرية، ومثالية الوجود الإلهيّ، وبشاعة الإلحاد والمادية في كتابات روسو، دون أن يجتذبه ما سواها من آراء في العقد الاجتماعيّ والحقوق المدنية، أو يجعلَ من أفكاره صورةً مطابقة لأفكار روسو؛ فلم يؤمن بخلق المجتمع المثالي الذي تخيّله روسو، بل كان يحلمُ بالعودة إلى حياة الفطرة. ولم يتحوّل مثل روسو إلى مصلح اجتماعي مؤمن بالخير النابع من الطبيعة، بل بقي كاتبًا عاطفيا حالمًا يمجّد الطبيعة ويجعلها مبدأه ومنتهاه.

وإذا كان «جبران» قد تأثر بوليم بليك فإنه احتفظ بذاتيّته حتى رأت فيهما برباره يانج شاعريْن مختلفين كلّ الاختلاف. فبينما صوّر "بليك" الروح هائمةً على

«جبران»

وجهها في عالم المجهول، تنقلب بين النشوة والخلاعة والمجون - نجد " جبران " يصوِّر الإنسان كائنًا سماويَّ الجمال والحساسية، لا يحمل جسدُه آثار تراب الأرض بل روحًا شفافة عُلويَّة. وبينما صوَّر بليك ملائكة وقديسين وشياطينَ خرافات وأساطير - عاش " جبران " مع كائنات نورانيَّة تسبح في عالم من الكمال نقيةً خالصة. وإذا كنا نجد ذلك كله في نوڤاليس وكليست ولامارتين وألفريد ده ڤيني وشلي وكيتس، غير أنا لا نجد في «جبران» ذلك القدر نفسه الذي نجده في هذا أو سواه.

بل إن «جبران» المسيحيَّ الأصل لم يأخذ من المسيحية إلا ما يوائم أفكاره الأساسية. وقد ظل إيمانه بأصالة الخير في الإنسان بعيداً عن التأثر بالأفكار المسيحية عن الخطيئة الأولى التى هَوَتْ بالإنسان من عرش السماء. كما لم يتخيل وجودَ جحيم في العالم الآخر، وذلك ما جعله يرى في الموت نهايةً للأغنياء الذين لن يعرفوا الخلد في عالم الروح. وقد أخذ «جبران» عن البروتستانتية حريةَ الفكر في تفسير الكتاب المقدس، وانطلق يشكِّل بهذه الحرية مسيحيةً فطريةً بعيدة عن مسيحية الإنجيل، قريبة من الصورة التي تخيّلها لدولة الطبيعة. وهكذا خلق يسوعَ جديداً

أسبغ عليه ملامحَ يسوع، ولم يزوِّده بأفكاره، وجعله ينطق برسالته هو لا برسالة المسيح. ولم تَعُد المسيحية عند «جبران» غيرَ فرعٍ من فروع الدين الكلِّي الواحد، وغيرَ طريق من الطرق المؤدية إلى الحقيقة، فإذا محمدٌ ﷺ ويسوعُ عليه السلام على قدر متساو من التقدير والمحبة، ولم يَعُدْ من الممكنِّ أن يكون الله عند «جبران» شيئًا سوى المحبة. وأصبح دينُه الرئيس هو التقاء العواطف الإنسانية، وعقيدتُه هي وحدة الوجود، وألوهية الكون، وكونية الإله، التي استقاها من بين الأفكار الهندوكية والطاويَّة والبوذية وكتابات إمرسون وبليك وبعض متصوِّفة الإسلام، ومدارسَ الفكر الحديث الأمريكية.

ومع ذلك ارتبط «جبران» بالحياة وأخذ يردِّدُ: «لو شئتم تسميتي بشيء فقولوا إنني من حزْب الحياة».
وأصبح «جبران» أكثرَ واقعيةً وتفاؤلاً وتَلفُّتًا إلى الأرض، ومضى يبشِّر بقوله: «أحبّوا الجمال، وليكن الجحيم مثوى أيِّ شيء آخَر غير الجمال». فلقد آمن «جبران» بأن إبداع الجمال يوقظ وجدان البشرية، وأن مستوى الإبداع إذا ما ارتفع شكَّلَ نهضةً عظيمةً قوامها العدالةُ والرحمة و المحبة والعبادة، وجَعَل أرضَنا الطيبة الخضراء حقيقة سماويَّة وواقعًا قدسيا. سُئل جبران

ذات مـرة عن الأقـانيم الأسـاسـيـة للـحـيـاة المتكامـلة وأجـاب: «لا أضعُ قواعدَ للسلوك؛ فـافـعل ما تشاءُ ما دمتَ تفـعله بكل جـمـال». وفي هذا تذكـر بربـاره يانج أمسيةً كـانت تجلس فيهـا إلى «جبران» بعد فـترة طويلة مرهقة من العمل، وفجأة ودون تمهيد خاطبها «جبران» متسائلاً:

«افـتـرضـي أنني طلبتُ منك أن تتـخَلّي عن مـعظم الكلمات التي تعـرفينهـا ، أو أن تتوهّمي أنك نسيتهـا ، فأيةُ كلمات سبع يقع عليهـا اختيـارك لتـحـتفظي بهـا ، وتكون أفضلها وأعـمقـهـا؟». وبعد تردّد قليل اختـارت هذه الكلـمـات : الله ـ الحـيـاة ـ الحب ـ الجـمـال ـ الأرض، ثم توقّفت وعـجـزت عن اختـيـار الكلمتيْن المكمِّلتيْن للعـدد المطلوب. ومن ثَمَّ طلبتْ منه قـائلة: خبِّرني يا «جبران» عن الكلمات التي اخترتَهـا أنتَ. . فَرد قـائلاً: «لقد نسيت أهمّ كلمتيْن، ودونهـمـا تبدو الكلمات الأخرى واهيـةً كليلة. إن أهـم كلمتيْن عليك أن تحتفظي بهـمـا هـمـا: أنت وأنا. . ولسنا بعدهمـا في حاجة إلى كُلَيْمات أخرى». وأضاف قـائلاً: «يجب أن نكون، ويجب أن نأخـذ». ثـم أخـذ يتـحـدث في بطء شديد وأنفـاس لاهثـة قـائلاً: « هذه كلمـاتي السبـعـة: أنت ـ أنا ـ خُذ ـ الله ـ الحب ـ الجمال ـ الأرض».

وطالت جلستهما معًا، وران عليهما صمت طويل،

لم تستطع أن تحدِّد مداه إلا أنه كان سكونًا نابضًا بالشعور ومحرِّكًا للشعور. وظلّت تدير الكلمات السبعَ في ذهنها مرات ومرات فوجدتْ فيها كل شيءَ عن الحياة، وعن الموت الذي هو جزء من الحياة، وعن الخلود الذي هو صورة الإله.

تقول برباره يانج: «وبعد فترة من الوقت عاد الحديثُ يجري على شفاهنا، فأخذنا هذه الكلمات، وصغناها في قصيدة قصيرة هي:

«خذني أيها الحبَّ.

خذني أيها الجمال.

خذيني أيتها الأرضُ.

فَردَّ الحبُّ والأرض والجمال:

سنأخذك.

وكذلك قال الرب:

سآخذك».

في ضوء هذه العوامل كلِّها كتب «جبران» وألَّف وصوَّر ورَسم. وتَحكي كتُبه التي تتابعت قصةَ نفس حالمة تردَّدت بين مختلف النوازع والعوامل والآلام. فكان «جبران» يؤثر أن يكون الأدنى بين ذوي

الأحلام الطّموحين إلى تحقيقها على أن يكون الأعلى بين من لا حُلْمَ لهم ولا طموح.

ويكاد يكون جماع القول في شخصية جبران ما قالته ميْ: «هي شخصيةٌ عالمية مستأثرة أنانية. هي شخصيةٌ عالمية، والدليل أنه عندما يتكلم مثلا عن لبنانه العزيز، وشرقه المحبوب - ينبضُ في كلامه الحبُّ والاعتزاز لكل ما هو ليس لبنانَ، وكلٍّ ما هو ليس الشرق. وعندما يحشدُ عنايته على شخصية واحدة يعظِّمها بفنّ المصوّر جاعلاً ما سواها أشباحًا في اللوحة تزيد تلك الشخصيةَ وضوحًا - فإنما هو يعتني في نفس الوقت بطائفة الشخصيات المشابهة لها في الماضي والحاضر والمَستقبل، جرّدهاَ جميعًا من فروق اللغة والجنس والوطن والعصر؛ ليخلِّصَها جميعًا في استعدادها الخاصٍّ ونزعتها الخاصة وكيفية تصرُّفها بالحوادث المارة بها. وشخصية جبران مستأثرة؛ فهي قبل أن تُعرب عما يخالجها تُسْلف حذفَ وجود شخصيات غيرها، ولا تستمدُّ إلا من حسِّها الفردي الذي تجتاحه تياراتُ الحياة، وتنعكس عليه صور الوجود. ولأن هذه الشخصية تعرف أنها قادرة محكمة في بابها فهي لا تفترض الاعتراض والمناقشة عند القارئ، أو هي تفترضهما عند نفسها، وتردُّ عليهما

بالجواب المفحم؛ لذلك يصبح موقفك أنت القارئ حاسمًا حيال هذه الشخصية، فإما أن تَجمُدَ أمامها وإلا فأنت أحدُ أصدائها. . حيال فن جبران لك كلمةُ نعم أو كلمةُ لا. أما المناقشةُ فسخيفة غبيَّة، وهل من استئثار أعظم من هذا؟ وقلتُ إن تلك الشخصية أنانيةٌ، وأقولَ إنها تزداد أنانيةً كلما أرهف تطوّرها واستُؤنف نموّها؛ لأنها تفحم الشخصيات الأخرى عن طريق شعورها بها، فتتناول كلَّ شخصية عالمية ـ صالحة كانت أو طالحة ـ وتصهرها بعملية فكريَّة لتمزجها بالجانب المشابه من شخصية جبران الكاتب أو المصوِّر. فإذا ذكرت بعدئذ تلك الشخصية الغريبة كانت ذاكرةً جانبًا من ذاتها هي، شخصية جبران. وإذا أسهبت في التفصيل وأفلحتْ في البيان فلأنها تنقل صورة ماثلة أمامها، وتروي عما يخالج خوافيها. أرأيتَ مرةً في كتابات جبران استشهاداً بكاتب أو بشاعر أو بعظيم؟ قد تعثر أحيانًا على مثل ذلك في كتاباته الأولى باللغة العربية، أما بعد ذلك فلا، مع أني واثقةٌ [ومضمونُ كتاباته ناطق بذلك] من أنه لم يهمل التنقيب والاطلاع، ويسايرُ الحركة الفكرية في العالم في شتّى مظاهرها. غيرَ أنه لا ينسى اقتناعه ذاك من أنه متبوع لا تابع، قائد لا مقود، تظهر معلوماتُه المستوحاة من

كتب الآخرين وأقوالهم في «الحرف» من كتاباته وإن هي تلخَّصت في المعنى الصميم؛ لأن أنانيته تحوِّل كلَّ ما يتصل بها إلى جزء منها، ثم تخرجه على القرطاس وكأنه إلهام شخصيّ لم يظفر به من قبل أحد. وهذه هي روح الفن السحريّ».

هكذا أضاف جبران تجاربه الذاتيةَ في الحياة إلى الأفكار التي استقاها من عصره، ثم أعاد صياغةَ هذه الأفكار، ولوَّنها بطابعه الشخصيّ المميز، واختار قالبًا قصصيًا ليقدِّم فيه خُلاصة فكره أكثرَ ما يكون رقةً ونداوة، وأعمقَ ما يكون سحرًا وتأثيرًا، وأروع ما يكون صدقًا وإخلاصًا.

وحدة الأديان عند جبران

كان جبران يرى في الإنسان ألوهية تحوطه بهالة من القداسة، فالإنسان في رأيه يأتي من السماء إلى العالم الأرضى سنوات ثم يعود إلى الله من جديد. وفي هذا المعنى يقول:

«شاهدتُ وسمعت كل ذلك وأنا طفل. ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله. أنا كنت من الأزل،

وهأنذا، وسأكون إلى آخر الدهر. وليس لكياني انقضاء».

والأديان روابط تشدّ الإنسان إلى أخيه البعيد، فهي مع اختلافها دين واحد. ومع إيمان «جبران» بوحدة الأديان التي أخذها سواء عن الفكر الهندي أو عن الكاتب الأمريكي «إمرسون» أو عن «وليم بليك» فقد كانت وحدة أديان العالم العربي هي التي تعنيه. إنه يحتفظ بيسوع فى نصف صدره، وبمحمد في النصف الآخر، ويهمس إلى كل مواطن يعيش في العالم العربي:

«أنت أخي، وأنا أحبك، أحبّك ساجداً في جامعك، وراكعًا في هيكلك، ومصليّاً في كنيستك، فأنت وأنا دين واحد هو الروح. وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس»[1] إلى أن يقول: «كنت على الطور إذ تجلّى يَهوه لموسى، وعبر الأردن فرأيت معجزات الناصري، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب، وهأنذا الآن أسير الحيرة.. جالست سَحَرة عين دور وكهنة أشور وأنبياء فلسطين، وما برحت أنشد الحقيقة»[2].

---

(١) دمعة وابتسامة.

(٢) دمعة وابتسامة.

ونلمح في عقيدة «جبران» بوحدة الأديان آثار نظرة المتصوّف الإسلامي الكبير الحسين بن منصور الحلاج. أو لم ير الحلاج قبل «جبران» وغيره أن الأديان كلها وجهات نظر مختلفة لحقيقة واحدة ينشدها الجميع، ويطلقون عليها أسماء مختلفة لا تغيّر من جوهرها؟ وإن ذهب الحلاج إلى أبعد من ذلك فرأى أن الله هو الذي اختار لكل طائفة دينها، ولسنا نحن الذين نختار الدين الذي نُنسب إليه، بل الله هو مَنْ يختاره.

ومع ذلك كانت نظرة «جبران» إلى المؤمنين بدين غير دينه في تقدير وحب استمرارًا لتقاليد عربية طالما أظهر جبران اعتزازه بهما. وقد عبّر عن هذه التقاليد ابن الفارض الشاعر المصري الصوفي الكبير حين قال في تائيته الكبرى:

وما عقدنا الزنّار حكمًا سوى يدي ... وإن حُلَّ بالإقرار بي فهي حَلّت

وإن نار بالتنزيل محراب مسجد ... فما بار بالإنجيل هيكلُ بيعة

وأسفار توراة الكليم لقومه ... تناجي بها الأحبارُ في كل ليلة

وإن خَرّ للأحجار في «البُدّ» عاكف ... فلا وجه للإنكار بالعصبية[1]

---

(١) الزنار: حزام يشدّه النصراني في وسطه.
نار: أضاء. التنزيل: القرآن
بار: هلك، بطل، فسد. بيعة: كنيسة النّصارى
الكليم: موسى الأحبار: علماء اليهود.
البد: الصنم عند البوذيين، تمثال بوذا نفسه والمعنى أنه إذا سجد للأصنام في معبد بوذا عاكف، فلا محل للإنكار عليه، وإلا كان ذلك تعصبًا.

كما تغنّى بها قبل «جبران» «ابن عربي» أعظم شعراء الصوفية في أبيات شعرية :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف ... وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

وفي مسرحية جبران القصيرة «إرم ذات العماد» إبراز لنزعته الشمولية الصوفية :

من القرآن الكريم أخذ اسم هذه المدينة التي ورد ذكرها في سورة الفجر، وصوّرها في صورة غابة صغيرة زاخرة بالثمار والأشجار، تحتضن بيتًا وحيداً قديمًا، وتقوم على مقربة من قرية الهرمل التي يسكنها الشيعة في شمال شرقي لبنان، وجعل زمن أحداث المسرحية عصر يوم من أيام يوليه من العام الذي ولد فيه وهو عام ١٨٨٣ .

وجمع في هذه المسرحية بين شخصيات ثلاثة : أحدها مسلم صوفي من العجم في الأربعين من عمره سمّاه زين العابدين النهاوندي، وثانيها أديب مسيحي من لبنان في الثالثة والثلاثين من عمره يسعى وراء الحكمة أسماه نجيب رحمه، وثالثها امرأة غامضة

أسماها آمنة العلوية وإن جعل السكان يسمّونها «جنّية الوادي».

«جبران» المسيحي تخيّر مادته من القرآن. ثم تخيّر بطلة قصته مسلمة عميقة الإيمان من فرقة العلويين، بل تخيّر اسمها «آمنة» اسمًا إسلاميا عزيزًا من أكثر أسماء المسلمات تداولا واستعمالا. والحديث الذي يجريه «جبران» على لسانها حديث غريب عن الناس لم يألفوه من قبل.

وتبدأ المسرحية مع نزول نجيب رحمه عن فرسه المكدود إثر رحلة طويلة، وربطه إياه في جذع شجرة، ونفضه غبار الطريق عن ثوبه، ثم دنوّه من زين العابدين الصوفي المستغرق في تأملاته، وسؤاله عن بيت آمنة العلوية.

ومن حوار الصوفي مع الأديب نعرف أن آمنة سليلة بيت دمشقي صوفيّ التقاليد، وابنة عالم في التصوف والروحانيات علويّ ضرير، مضت به إلى الحج في عامها الخامس والعشرين غير أنه مات في الطريق، فظلت خمسة أعوام تطوف بالبلاد، حتى إذا بلغت الموصل بعد ذلك احتفى الناس بها تقديرًا لعلمها الغزير، وحقد عليها بعض الفقهاء ممن أكل قلوبهم الحسد وهاجموها بدعوى السفور.

ويتناول حديث آمنة أسرار الكون والوجود، ويمضي على نسق صوفي يتسلّل سحره إلى النفس قبل أن تنفذ معانيه إلى العقل، وتوجز آمنة وحدة العقيدة حين تنصح قائلة:

«قل لا إله إلا الله، ولا شيء إلا الله، وكن مسيحيًا».

ويحسّ المرء وسط هذا اللقاء الذي جمع فيه «جبران» بين مسلم ومسيحي توّاق إلى المعرفة في رحاب صوفيّة عرفت أسرار الحكمة القديمة في«إرم ذات العماد» يحسّ عمق إيمان «جبران» بوحدة الأديان، وتقديره ـ وهو مسيحي ـ لصوفية الإسلام المتسامحة.

ترى هل كانت شخصية نجيب رحمه في المسرحية هي شخصية «جبران» في الحياة؟ على أية حال لقد أتاحت له هذه النظرة أن يلعب دوراً في تطوير الأدب والفكر فى العالم العربي الذي يتسم بغالبية مسلمة، وباعتبار أقليته المسيحية نفسها جزءاً من كيانه وتراثه وفكره. هذا وإن كان ميخائيل نعيمه يشكّك في رسالة حديثة له في محاولة مزج العناصر الواقعية بهذه القصة الخيالية، فهو يعزو اختيار اسم آمنة العلوية إلى

موسيقاه ولطف معناه، فآمنة هي صاحبة النفس المطمئنة، أما العلوية فالمقصود بها السماوية، على حين ترمز مدينة إرم الخرافية إلى أن رتبة المعرفة الصوفية لا يبلغها غير القلائل المصطَفين.

لقد أضحت النزعة الصوفية دين «جبران» وعقيدته وأصبح هو نبيّها الداعي إليها. وإذا كانت نزعته عناقًا بين المسلم والمسيحي، فهي كذلك عناق بين الدين والحياة.

«الدين.. ما هو؟ إنه الحياة.. الحياة: حقل، كرمة، نول.. أما الكنيسة فهي بين جنبيْك، وأنت... أنت كاهن نفسك. الدين بين الناس ليس إلا حقل يزرعه هؤلاء الذين لهم غاية، بعضهم آمل في نعيم الأبدية، والبعض الآخر جاهل يجزع من لهب المستقبل.».

وقد أثارت نظرته هذه عداء كبار رجال الدين المسيحيين ضده، فهو في رأيهم خارج عليهم إذ يعدّ الكنيسة من صنع البشر. أليس هو القائل في «الأرواح المتمرّدة»: لنعبد ونصلِّ حسب مشيئة نفوسنا، لا مثلما يريد الرهبان والقساوسة! ثم قوله في «المواكب» «أعطني النايّ وغنّ.. فالغُنا خيرُ صلاة».

إلى أن يقول في كتاب «النبي»:

«وهل الصلاة إلا إنطلاق الروح فى الأثير الحيّ؟ فإذا كنتم تجدون العزاء حين تصبّون نفوسكم في الفضاء، فإنكم لتستشعرون السرور أيضًا حين تسكبون فيه مطالع النور من قلوبكم.

وإذا كنتم لا تتمالكون دموعكم حين تغريكم أرواحكم بالصلاة، فسوف تحثكم عليها مرة أخرى على رغم بكائكم، حتى تأتوا إلى الصلاة متهلّلين.

فإن نفوسكم لتَصْعد حين تصلّون، لتلقى أرواح أولئك الذين يصلُّون في اللحظة نفسها، وهيهات أن يكون لقاء إلا في الصلاة».

وسأله أحدهم متحدّيًا عن شعائر دينه الجديد فأجاب:

«سأنحت يا صديقي حجرًا أثبته في حقل لكي يكون حجر الأساس لمعبد جديد، ثم أرقد رقدتي الأبدية بعدأن أكون قد أدّيت رسالتي في بساطتي المعهودة عني.. ولكن انتبه يا صديقي..

بعد موتي سيأتي غيري ليضيف حجرًا جديدًا، وعلى هذا المنوال ستتوالد أجيال عديدة تعيش وتموت، وفي كل جيل منها يأتي أخ لي ينحت حجرًا ويقيمه كما فعلتُ سابقًا وهكذا.. حتى يُشاد المعبد ويتخذه الأعلوْن مسكنًا..».

ولم ينجح الموت في إعادة «جبران» إلى المسيحية وتخلّيه عن صوفيّته، فقد رفض أن يعترف للكاهن الماروني أو يسمح له بأداء الطقوس المسيحية ساعة احتضاره، وكأنه يسترجع ذاكرته قوله في «دمعة وابتسامة»: «لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين، بل دعوا قلوبكم تتهلّل معي بتسبيحة البقاء والخلود».

وحزن أصدقاؤه المسيحيون لرفضه طقوسهم الكنسيّة وهو على فراش الموت، غير أن صدى كلماته في «رمل وزبد» كانت تتردّد في أسماع بعضهم:

«مرة كل عام، في بستان بين تلال لبنان، يلقى عيسى النّاصري عيسى النّصارى ويتحادثان طويلاً، وفي كل مرة يمضي عيسى النّاصري وهو يقول لعيسى النصارى «يا صديقي، إني لأخشى ألا نتفق أبدًا.. أبدًا».

ويخيّل إليهم أن «جبران» قد مضى مودّعًا صديقه المسيح بنفس هذه الكلمات: «نحن صديقان وإن لم نتفق».

يقول عدنان الذهبي عن جبران فيلسوفًا(١): «أيا تكن تلك الموضوعات الفلسفية والدينية والاجتماعية

---

(١) الرمزية أدب جبران خليل جبران، مجلة الأديب مارس ١٩٥١.

التي يعالجها جبران في كل من أدبه ورسمه، والتي يعالجها أيضًا معالجة فنية ـ هي معالجة الفنان الأديب المتأمل الناقد ـ فهي في نظرنا لا يصحّ معها أن نعدّ صاحبها فيلسوفًا ذا مدرسة فلسفية أو فكرية، بل إننا لا نراها مهما تغلغلت أفكارها، أو مهما دقّت مشاعرها، لا نراها تخرج عن حيّزها الفني الذي لها، هذا الحيّز الذي لم يتعدّه جبران في كل ما فكّر وشعر وكتب ورسم. وهذا أساس فهم هذا الأديب والفنان العظيم. وفهم جبران هو فهم لأديب درس على الطبيعة والحياة أكثر من درسه على أساتذة الفكر والفن وأعلامهما، أديب جلّ ما فعل به اصطدامه بالثقافات الفلسفية والفنية أوصله إلى آفاق هذ النشيد الفلسفي الأدبي الذي استأثر به إيما استئثار، وهو نشيد الإنسانية».

كما يقول عنه متصوّفًا: «الذي بقي لخصوصية التجربة الجبرانية في مجاليْ التفكير والشعور إنما هو نزوعه الصوفي إلى الله تعالى، الله الذي يراه جبران العقل الكلّي والروح الشاملة، والذي وإن كان يطلب من الناس في «حديقة النّبي» أن تصرف التفكير فيه إلى التفكير في أمور معاشها، إلا أنه ليبوح في شتّى كتبه بنوع إيمانه به، هذا الإيمان الحلولي الذي يرى الله في كل شيء في هذا الوجود، يراه في الزهر والشجر والحجر، كما يراه في الإنسان نفسه».

ويعقّب عدنان الذهبي على تلكما النزعتيْن الفلسفية والصوفية عند جبران فيقول:

« أنت إذا جرّبت أن تردّ جبران إلى مدرسة من المدارس الفلسفية أو الدينية التي اصطدم بها وأخذ يعالج أمورها ومشكلاتها، هذه المعالجة التي يوهمك ما لها من مسحة إنسانية تجريدية بأن لصاحبها رأيًا نافذًا يقينيا هو رأي الفيلسوف المجمع أو رأى العالم المحقق، أقول إذا أنت جرّبت هذا، لم تجد لجبران مذهبًا قائمًا بنفسه يميّزه تمنطق منهجي أو نظرة مجمعة، ولقيت هذا الفنان والأديب المعذّب المضطرب على صخرة مسيحيته المؤمنة المحبة للناس والسلام يتأرجح بين تيارات مختلفة من الثقافات، أبرزها فلسفة نيتشه الوجودية الاجتماعية الملحدة».

وفي الحق إن جبران لم يدّع أنه مفكر فيلسوف بل خالق أشكال، يعدّ نفسه ذا نفع إذا استطاع أن يفتح لإنسان ما زاوية جديدة في قلبه هو، فالأثر الفني في رأيه علاقة حب بين الفنان والقارئ»[1].

يصفه مونسنيور إلياس زغبي في مستهل كتابه عنه أنه «رجل رفع ذاته إلى مستوى الألوهية، ورفعه قوم

---

(١) توفيق صايغ: أضواء جديدة على جبران. صحيفة ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

إلى شرف النبوة والإلهام وترنّموا بأناشيده في بيوت الله وارتأى آخرون أنه فيلسوف ومفكّر، فاتخذوا أقواله دستوراً لحياتهم ومقياساً لعقولهم. وقام آخرون ـ وهم لله الحمد كثيرون ـ وقالوا هو متطرف حتى الجنون. هو خيالي يفسد أخلاق الناشئة.. هو من أعداء الإنسانية فوضوي كافر ملحد»[1]. إلى أن يختم الكتيب الذي أفرده له بأن «جبران» كان شاعراً مجيداً ومصوراً بارعًا، له من قوة الخيال ودقة الإحساس ما أتاح له الإجادة في وصف الطبيعة وتمثيلها بشتى الصور والألوان ووافر التشابيه والاستعارات والكنايات. والحق يقال إنه لم يكن من أولئك الكتاب أو الشعراء الذين قصروا كلامهم على مجموعة من القوالب والعبارات المبتذلة الجارية على كل لسان، بل غرف من قرارة نفسه وابتدع بقوة قريحته صوراً تجلّت فيها ذاتيته. إلا أنه لسوء الحظ لم يتح لخياله وإحساسه التحليق في منطقة أسمى من المادة، ينشران فيها الأجنحة حتى آخرها، ويشرفان منها على الحياة من مختلف نواحيها، بل قيّدها بهواه، وحصرها ضمن دائرة الحب الشهواني السافل. نراه يحب الحقول

---

(١) الأب إلياس زغبي: جبران خليل جبران ـ ١٩٣٩ ـ مطبعة القديس بولس في حريصا.

لأن «كل شيء يتكلم فيها عن الحب: أغصانها تتعانق وأزهارها تتمايل وطيورها تتشبّب[١]. يرتاح لمشاهدة الجداول والأزهار والغيوم لأنه يرى «الجداول تسير إلى حبيبها البحر والأزهار تبتسم لعشيقها النور والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي[٢]. وبكلمة كان الحب ـ الحب الشهواني ـ في نظر «جبران» ثمرة الحياة وشهوتها[٣]، إليه ترجع كل تصوراته وخيالاته، وفيه ينحصر كل حسن وجمال. وجسم المرأة شغله الشاغل، وقد اعترف بذلك أحد عشّاقه إذ قال: إن «جبران» قد صبا إلى الجمال الأزلي ووسمه بشكله الخالد، الجسم البشري، جسم المرأة على الأخصّ. فالشلال يرسمه عاريات منزلقات برشاقة وقوة، والجبل جسم عظيم التعاريج[٤].

ويعلّق المونسنيور زغبي على «جبران» المفكّر بقوله: قامت فئة تلقّب «جبران» بالمفكّر وغاب عنها أن المفكّر لا يكتفي بالدلالة على الدواء والإشارة إلى الخلل، بل يعالج الداء بالدواء الناجع والخلل بما يلائمه من وسائل الإصلاح، ولا نرى أن «جبران» عالج أو أصلح. إن

---

(١) دمعة وابتسامة. (٢) دمعة وابتسامة.

(٣) الدّرر المختارة. المطبعة الرشيدية.

(٤) المكشوف ٥ أيلول ١٩٣٨.

المفكر يهدم ثم يبني على أنقاض ما هدم، أما «جبران» فقد كان أميل إلى الهدم منه إلى البناء. . لقد رأينا كيف سلّط «جبران» الخيال على الفكر والقلب على العقل. لنسمعه يعرّف الكاتب الذي أراد أن يتحداه في جميع مؤلفاته: مَنْ نقَّب وبحث ثم كتب فهو ربع كاتب، ومن رأى ووصف فهو نصف كاتب، ومن شعر وأبلغ الناس شعوره فهو الكاتب كله.

على المفكّر أن يرشد البشر إلى طريق السلام والطمأنينة والسعادة، و«جبران» قد اعترف بعجزه عن تبديد ما أصابه طوال حياته من تعس وكآبة، فيحقّ لنا أن نقول له: أيها الطبيب اشف نفسك!

جبران مصوّراً

ضمّن «جبران» كتبه بعضَ صور رمزية تشارك الألفاظَ همسَها وإيحاءها، وإن لم تخل من غموض في عيون بعضهم حتى اختلف الناسُ في تفسيرها، كتلك اللوحة التي تجمع بين اثنين متشابكَي الأيدي وظَهْرُ كل منهما في ظَهْر الآخر. فقد اختلف في تفسير مغزاها الكثيرون، ورأى بعضهم أنها ترمز للزواج الذي يجمع بين زوجين مختلفي الميول والطّباع.

ورأت برباره يانج في إشراقة ملامح أحدهما واكتئابة الآخر ماجعل اللوحة رمزًا لارتباط الفرح بالحزن في حياة البشر. فالوجوه التي يصوِّرها «جبران» تنطق بشعور الحياة وتنبضُ بأنفاسه، تتعالى جفونُها في كبرياء وتختلج شفاهها، وتعلو صدورها وتهبط كأنما ترسل أنفاسَها، تعابثُها الريحُ فتكاد تحرِّك خمارَها وأقنعتَها، وتحرِّك في مشاهديها التأثُّر والانفعال، حتى قال بعضهم: «ليستْ هذه ذكرى صور، بل هي أرواح حيَّة».

ذلك بالتحديد ما كان يريده جبران حين يجلس ممسكًا قلمه أو فرشاتَه، فهو يقول: «أنا أحاول أن أجدَ ذاتي من خلال الطبيعة. إن الفن بالنسبة لي أبعدُ من الأشياء التي نراها ونسمعها، والطبيعةُ ما هي إلا جَسَد الله، شكْلُ الله، واللهُ هو ما أنشدُه وما أحبُّ أن أتفهَّمَه»(١).

وهكذا كانت فرشاةُ «جبران» صوجانَه بعد قلمه.

وأغلب الظن أنه كان يحسُّ أن اللفظ لا ينقل كلَّ ما يريد أن يقوله، فضمَّ إليه الصورةَ تُعينه في نقل المعنى الذي تضيقُ عنه وسائلُ التعبير العادية. لقد كان جبران

---

(١) توفيق صايغ: أضواء جديدة على جبران ص ٢١٦.

رمزيا في تعبيره، رمزيا في تصويره؛ إذ الرمزية ـ أدبًا وتصويرًا ـ تحمل في طيّاتها ما يشبعُ نفس جبران وتحقِّق ما يبغيه. وقد يكون من المناسب هنا أن أسوق رأيَ عدنان الذهبي[1] في رمزية جبران حيث يقول:

«الرمزية عند جبران ليست نزوةً عابرة كالتي عهدناها عند مَنْ سَبقه من الأدباء والشعراء وبخاصة عند العرب منهم، في فنّيتهم البعيدة عن التمذهب الغربيّ، فلقد عهدناه عند هؤلاء في التشبيهات والاستعارات الرمزية الطارئة في الأسلوب. هي عند جبران تمذهُبٌ روحيٌّ وفكري قد عاشه هذا الأديب الموهوب، وبشَّر به في الأدب المعاصر الحديث، نستطيع تلخيصَها عنده بصوفيّته الحلوليّة المسيحيَّة التي كانت طابَعه في الشعور والتفكير من جهة، وبقوة خياليَّة المصوِّر الخلاّق الذي أعطى لأسلوبه طابَعه التصويريَّ في التعبير من جهة ثانية. غير أن جبران نفسه لا يدين بهذا الرأي في معنى الرمزية فيقول: «الرمزية.. يقولون الرمزية.. أزيلوا هذه الكلمةَ، ولا تقولوا الرمزية بل عبِّروا عنها بأنها الحقُّ المنظور، وإذا شئتم فقولوا إنها الجمالُ الملموس. ليست الرمزيةُ هي الكلمة، بل البساطة هي كل شيء. البساطة تلك

---

(١) جبران خليل جبران رسمه الرمزي. مجلة الأديب، ١٩٥١.

القدسيَّة التي يفتقر إليها العالم، والتي بدونها ضَلَّ البشر، ولا يزال حائرًا جائلا في زمانه ومكانه».

«أما رسومُ جبران فهي في الحقيقة عديدةٌ مختلفةُ الموضوع، متنوعةُ الأجواء؛ ولكنها ليست كلُّها رمزية، كما أن أدَبه ليس كله رمزيا، إلا أن المسْحَة الغالبةَ والأصيلة حقا فيها إنما هي المَسْحة الرمزيَّةُ التي تجلَّت في الإطار الذي اتَّخذه لرسومه: الإطار الرمزيّ الذي لا تكادُ تخلو منه صورةٌ من صوره، وهو لزوب الإنسان بالأرض. الأرض التي يرسمها جبران مَهْدًا للإنسان، أو مسرحًا لآلامه ولذائذه، أو لَحْدًا له ولذكرياته.. بهذا بقيت لرسوم جبران الرمزيةُ الحقَّةُ موضوع نشيدِه الفلسفيّ الذي أبدعَ التعبير عنه ألا وهو الإنسانيةُ.

على أن جبران لم يكن يميلُ إلى رسم المشاهد الطبيعيَّة، بل إنه لم يكن يستطيعُ رسمَها، كما لم يجنحْ إلى أن يجعلَ لأية لوحة من لوحاته ورسومه اسمًا إلا نادرًا؛ إيمانًا منه بصعوبة تسمية الرُّؤى والأفكار.

أما ما يَلفتُنا حقا في رسومه فهو أجساد شخوصه المتكررة التي لا نستطيع معها تبيُّنَ إن كانت لذكور أم

---

(١) توفيق صايغ: المرجع السابق، ص ٣٣.

لإناث ـ مترسِّمًا في ذلك خُطَى فنانه الأثير ليوناردو ـ فضلا عمّا يعتورُ قوامها من رَخاوة وَطراوة نَحارُ معها: هل قصد جبران ذَلك عامداً بوصفها شخوصَه النورانيَّةَ التي يتطلَّع إليها، والتي تُمثِّل صلةَ الشفافية المتسامية التي تربط بين الرجل والمرأة وقد نأتْ عن أهواء الجسد، أو كَما يدعوها هو: الجماعَ الفكريَّ والنفسيَّ عوضًا عن الجماع الجسديِّ الكامل؟ وهل هي في حَقيقتها اعترافاتٌ خبيئة تكشفُ عن مكنون سرِّه الذي لم يَجرؤ على البوح به في كتاباته، ومن هنا آثرَ ألا يُطلق أسماءً على رسومه إلا نادراً؛ اللّهم إلاإذا كان مردُّ ذلك إلى إيمانٍ منه بصعوبة تسميةِ الرُّؤَى والأفكار المجرَّدة؟».

وفي حوارٍ دار بينه وبين ميخائيل نعيمة بادره صديقُه بقوله: «ليسَ الفنُّ ما نصوره ولا الشِّعرُ ما نَنْظمه يا جبران؛ بل الفنُ أن ندرك بأرواحنا أُلْفَةَ الحياة فنؤلِّف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهضُ نقيضًا. والشعر أن نجدَ لأيامنا وزنًا ولليالينا قافيةً. وما دُمْنا تمرُّ بنا حالاتٌ تتعصَّر لها قلوبنا، وتعتم أبصارنا، ويتحوَّل الشّهدُ في أفواهنا علقَمًا، والشدّةُ في مفاصلنا رخاوةً، فما نفعنا من صورة جميلة نرسمها، أو من قصيدة «عصماءَ»

نَنْظمُها؟ أتصورَّ ُالجمالَ قبل أن يُصورِّنا الجمال. أتلفَّظُ الحَقّ قبل أن يلفظَنا الحق. ونحن لو حيينْا حياةً جميلة لما استطعنا أن نَفُوه بغير الحق، وعندئذ كنّا في غنى عن الكرازة بالحق».

فاعترض عليه جبران قائلاً: «أليس يا ميشا أننا كلّما صورَّنا الجمال اقتربْنا من الجمال، وكلّما نَظَمْنا الحق اتحدنا مع الحق؟ أم أنت تشاءُ أن تحتِّم الصمت على الفنانين والأدباء، والإفصاحُ عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس؟ لا بدّ للنفس من أن تشعّ بمكنوناتها ومن تلقاء ذاتها... وأنا ما أزال أقولُ إن الفن - وإن ميّز بين الجمال والشناعة - هو أقربُ السُّبل إلى الله. أما التأملُ البَحْتُ الذي أنت ترمي إليه فسبيل آخر، لكنه يؤدي إلى الصمت، وكَتْمِ سرِّ النفس ضمْنَ النفس. والصمت أرهبُ من الكلام وأصدقُ. أنتَ محقٌّ في ذلك، ولكنْ ستأتينا ساعةٌ نصمُتُ فيها، فلماذا نصمت قبل أن تدقَّ الساعة؟ سنصمُت يا ميشا، سنصمُتُ؛ ولكن لِنتكلَّمِ الآن».

قضية التعبير عند جبران

شارك جبران أدباء المهجر في العمل على تحرير اللغة من قيود «الشَّكلية»، وتجديد الأساليب اللغوية دون الخروج على قواعد اللغة، وتبنَّى فنون أدبية حديثة كالشعر المنثور، الذي يجمع بين الوِجْدانية والرمزيّة والتجريد والمثاليَّة المفرطة.

كان تقديسُه للكلَمة يبلغ أحياناً أن يَصْرِفَ عدّة أسابيع في تشكيل جملة صغيرة ويقول: «إنَّ عجْز الطرق القديمة عن التعبير عن أشيائي الجديدة جعلني دائبَ السَّعي وراءَ وسائل تعبير جديدة، ولم أقتصر على صياغة ألفاظ جديدة بل كنتُ أشكِّل إيقاعات وموسيقى وأشكال تأليف جديدة. كان عليَّ أن أبتكر صوراً جديدة لآراء جديدة. وإذا كان بعض الشعراء يبدؤون القصيدةَ وهم لا يعرفون كيف تنتهي بهم، فقد كنتُ أعرف دَومًا القصيدةَ الكاملة قبل أن أبدأ فيها حرفًا واحداً. كنتُ أرى في التعبير الجميل لفكرة سقيمة ما يجعلني أغضّ الطَّرفَ عن فكرة جميلةٌ صيغت في قالب رديء»(١).

ولقد استطاع «جبران» أن يكتسب مكانةً سامية بين الأدباء العرب في عصره بقُدْرته الفريدة على تَطْويع

---

(١) توفيق صايغ: أضواء جديدة على جبران، ص ٢٣١، ٢٣٢.

اللغة العربية وتهذيبها، وحسن صياغتها، وتحويل عباراتها النثرية إلى قصائد تحمل رنينَ الشعر وإن لم تحملْ أوزانه، وتلوينها بالألحان والظلال ونبضات العواطف، كما كتبَ مقطوعات غنائيةً تتألق بالروعةِ والنقاء، والقدرة على التأثير والإيحاء.

ومع ذلك لم يَهِنْ جبران في معركته من أجل تكوين أسلوب شخصي خاص به وقادر على حمل رسالته. ولم تكن استعانتُه بفن الرسم وبالكتابة باللغة الإنجليزية إلا مظهراً من مظاهر تلك المعركة.

وكان تردُّده بين الإنجليزية والعربية أوضحَ ما يكون في كتابه «النبي»: «فلقد كتبه أولاً بالعربية، ثم تركه جانبًا بعد أن رأتْ أمه المرهفَةُ الحس أنه سابقٌ لأوانه. وبعد سنوات خمس تحرّق رغبةً لإعادة صياغته، غير أنه لم يكد يفرغُ منه حتى انبعث في سمعه صوتُ أمه التي كان الموت قد اختطفها، فمزّقه. لكن نفسه لم تصبر على طيِّ كتابه في صدره، فكتبه مرة ثالثة لم يقتنع هو بها فمزّقه من جديد. وبعد عَشْرِ سنوات من كتابته الأولى أخذ يكتبه باللغة الإنجليزية دون استئناس بالنص العربيِّ. ولم يُعد «جبران» صياغتَه بالعَربية، كما لم يترجم نصَّه الإنجليزي إلى العربية حتى بعد أن ظهرت للكتاب عشراتُ الترجمات بلغات مختلفة.

وما من شك في أن اللغة الإنجليزيةَ قد باتت عند «جبران» بمثابة لغته العربية. فلم يعد يحسُّ بهذه لغةً أولى وبتلك لغةً ثانية بل أصبحتا لغَتيْه معًا، وبات يختار هذه أو تلك حين يجد في هذه أوتلك قدرةً كبرى على تلقّي فكره وحمله والإفصاحِ عن سرِّه. ويعترف جبران في هذا المقام بأن كل ما يعرِفه من الإنجليزية قد لقنه عن شكسبير، وعن التوراة، وعن ماري هاسكل. ويضيف إلى ذلك: «إن لي أسلوبي الخاصّ باللغة الإنجليزية، لكنّي لم أتمكن قطُّ من تغيير اللغة الإنجليزية بالشكل الذي غيرتُ به اللغةَ العربيةَ. ففي العربية قد خلقتُ لغةً جديدة داخلَ لغة قديمة كانت قد وصلت حدا من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدةً بالطبع، بل تعابير جديدة، واستعمالات جديدةً لعناصر اللغة»[1].

لقد كانت اللغةُ الإنجليزية طيِّعة طواعية اللغة العربية على لسان جبران، مما مكَّنه أن يكون شاعرًا بهذه اللغة، ولكنا لا نستطيع الزعمَ أنه قد بلغ بشاعريته الإنجليزية المكانة المرموقة بين شعراء الإنجليزية. ومع ذلك قد كسَب بهذه الشاعرية شعبيةً واسعة في الأوساط الغربية لا سِيَّما في الولايات المتحدة

---

(١) المرجع السابق نفسه. صفحة ٣٣.

الأمريكية. ومن الظلم بمكان ألا تنال مؤلفاتُ جبران التي كتبها بالإنجليزية حظّها في الأوساط الأدبيَّة، فليس ثمةَ إشارةٌ إليها من قُرْبٍ أو من بُعْد.

وسواء كتبَ «جبران» بالعربيّة أو بالإنجليزية، فقد كان له في كلتيهما أسلوبُه المتميِّزُ الخاصُّ به، الذي تأثر فيه بقراءته الكتب الدينية الهندية والمسيحية، وبخاصة التوراة والإنجيل، وكذلك كتب المتصوِّفة المسلمين وبخاصة ابن الفارض، وعلى وجه التخصيص تائيَّتهُ الكبرى التي أعْلَى من شأنها، وكذلك الغزالي وَابن عربي والحلاج. هذه الكتبُ التي نرى فيها جميعها أسلوبَ النبي الذي يعظُ بالموجَز من روائع الكَلِم، ويجنحُ إلى الحكمة التي تنطوي دائمًا على مَغْزًى نبيَل، أو تنم على سرٍّ جميل، في أسلوب أقربَ إلى الشعر المنثور، محتذيًا في ذلك نهج الصوفي الكبير الحلاج حين يقول: «لو ألقي مما في قلبي ذَرّة على جبال الأرض لذابت، ولو سقطتْ ذرّة من قلبي على الجحيم لأطفأتْه، ولو سقطت ذرةٌ من قلبي على الجنة لأنارتها». فلقد حلَّق «جبران» في كتاب «النبي» في آفاق الرؤية المتفائلة بالحياة، وتوهَّم في نفسه القدرة على تغيير تلك الحياة، فكان متمرّدًا على ما جَلَبَتْه الحضارة الحديثة للحياة، فينْفر كما تقول بربارة يانج: «من وسائل الحضارة الحديثةَ التي تهدمُ ولا تبني،

وكـان بودِّه لو أن حطَّم كلَّ طائرة وخلَّى بين الإنسـان وبين روحه المجنَّحة تسبح في الفضاء»(١).

كان «جبران» يريد حياةً أخرى غيرَ تلك الحياة العامة التي كَره مضامينَها وآلاتها واكتشافاتها؛ لكنه لم يتخيَّلها غيرَ حياة بدائية ساذَجة، فلقد كانت عزلتُه بعيداً عن وطنه وأهله، وانطواؤه على نفسه هارباً من المجتمع الأمريكيِّ الغريب عليه مما جعله يعجزُ عن أن يقدِّم حلاً حاسماً لمشاكلِ الوَاقع اليوميِّ من حوله.

وعلينا أن نعترفَ، مع خليل حاوي ـ في دراسته القيِّمة لأدب جبران ـ بأن «جبران» لم يكن في مستوى المسؤولية الاجتماعية التي حاول حملَها، وإن أذهلَنا بنفاذه إلى أغوار الأشياء مهما دَقَّت.

كان «جبران» نبيّاً ظهر في غير عصره وفي غير وطنه، فلم تنجح نزعتُه ودعوتُه إلى الحياة الفطرية في مواجهة مشاكل العصر التكنولوجيِّ الحديث، ولم يزوِّد الإنسان المتمدين بزاد جديد، وإن أتاح للمحزونين الهروب إلى عالم خيالي فيه الإخلادُ إلى الطُّمأنينة. وقد فطنَ أصحاب دور النشر إلى أنه ما يكاد يموت إنسانٌ حتي يتهافتَ العشراتُ من أقاربه

---

(١) يالج، برباره: المرجع نفسه، ص ١٧ ـ ٢٧.

وأصدقائه على اقتناء كتاب «النبي» بحثًا عن السلوى والعزاء. كما أن كثرةَ الشبان يقتَنون الكتاب ليقتبسوا من عباراته الرقيقة ما يمسُّ قلوب الفتيات، ويثير فيها كمينَ الوَجْد، ويلهب العواطف. وقد أوردتْ مجلة «سڤنتين» ـ التي قالت بشعبيَّة الكتاب ـ فقرةً من رسالة فتاة تُعَدُّ شاهدًا على ما تستشعره الكثرةُ من الفتيات عند قراءة النبي تقول فيها: «ما أندرَ هذا الكتابَ الفريد! وما أقدرَه على تبديد الأحزان التي تجثمُ على القلوب، ومَنْح الأرواح المكدودة فرحَة الرّاحةِ والإشراق!».

عقيدة جبران في الوجود

في فم نبيّ «جبران» نشيدٌ عاطفيّ راعش، يتغنّى بالإنسان والطبيعة والحب والحياة، وينسكب نورًا لا ينير غير الجوانب الخيِّرة الرائعة في الحياة والإنسان، مؤمنًا بنفع الإنسان وصلاحه وصفائه ونقائه من الشرور. إنه يهمس إلى الذات العظمى الكامنة في البشر جميعًا، التي تنفلت من الصور المادية لتلتقيَ متّحدة متآلفة في عالم السماء. يتحدّث إلى الإنسان العظيم الذي يمثّل في كيانه غير المحدود البشرَ أجمعَ لحمًا ودمًا والذي هو وحدةٌ منه. فإيمانُه بالطبيعة إيمان

بمجموعة من الكائنات الحيّة يحسّ بها في حركتها، ويتبيَّنها في روح الحب النابعة في جميع المرئيات والمحسوسات التي ترتبط بالطبيعة برباط الأمومة: «كلُّ شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم الأرض.. وهذه الأرض هي أم الأشجار والأزهار.. وأم كل شيء في الكون، هي الروح الكلّية الأزليةُ الأبدية المُتْرَعة بالجمال والمحبّة..

والطبيعةُ ترتبط بذاته [الإنسانية] ارتباطًا أعمق من ارتباط الجسد. إنها تهمس إلى روحه الكامنة في الأعماق، ويحسُّ بها هو حين يتحلّل القناع المادي عن ذاته فتهفو روحه إلى الطبيعة كاشفة له عن أسرارها.

فما أشبه التجاذب بينه وبين الطبيعة بالتجاذب بين الموجة والشاطئ، ما يكاد الموجُ يندفق حتى يعانق الشاطئَ الحبيب، فإذا ما انحسر استرخى على أقدام ذلك الشاطئ، وبالتجاذب بين المطر والروض حين يقول المطرُ: «إذا ما رأيتُ روضةً جميلة سقطتُ وقبَّلت ثغور أزهارها وعانقتُ أغصانها».

وهو يرى الطبيعةَ نظامًا دقيقًا خاضعًا لقانون كَوْنيّ يحرّك الشمس وكلَّ ما يحيط بها، ويستمد قوته من قدرة الله، ومن ثم كان «جبران» يحمل للنظام الطبيعي ما يشبه التقديس ويرى في الطبيعة التي يسودها النظام

«الأم الكونيّة والروحان الصّاعدان»

تجسيداً للحرية المثالية؛ لأن القانون هنا نابعٌ من الذات وليس مفروضًا عليها. هكذا يرى «جبران» الوجود كله وحدة واحدة. وهو لا يفرّق بين جزئيات الأشياء ما دامت هي جزئيات في الكيان العام، حتى المشاعر، حتى الطاقات الحيّة في الإنسان، حتى اختلافات التقدير. كلُّها في مجموعها أجزاءٌ للكلِ الواحد: الوجود. بل إن الوجود عند «جبران» ليَمتدُّ إلى أعمق من مفهومه، فهو قائم بذاته بغضّ النظر عن صُوَره، والأرواحُ عنده تتناسخ، وفكرةُ الموت عنده تعني الانتقال لا العدم؛ فنراه يقول لماري هاسكل: إنه يؤمن أنه عاش حياةً بشريَّة في الماضي: مرتين في سوريا، ومرة في إيطاليا، وأخرى في اليونان، ومرة في مصر، وستَّ مرات أو سبع في بلاد الكلدان، وواحدةً في كل من الهند وفارس»[1]. على أن وحدة الوجود عند «جبران» لا تعوق نمو الشخصية الفردية، ولا تحول بينها وبين الحركة المستقلة ذات الطابع الخاص. وفي حديثه عن «الزواج» تحليلٌ بارع لوحدة الوجود، ولاستقلال الشخصية الفردية، والمحافظة على ما لها من ميزات.

---

(١) توفيق صايغ: أضواء جديدة على جبران، ص ٤٧ ـ ٤٨.

والمظاهر التي تبدو للناس ليست حقائق ما في الوجود من أسرار . . كلا . . ولكنها لا تعدو أن تكون صوراً لحقائقَ أعمق مما تتحمّله هذه المظاهر، أو لما قد توحي به من معان. وفي «استطاعة كلِّ إنسان أن يتشوَّقَ ثم يتشوَّق ثم يتشوّق حتى ينزعَ الشوقُ نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته. ومَنْ يرى ذاتَه يرى جوهر الحياة المجرد، فكلُّ ذات هي جوهر الحياة المجرد». ولعل فكر جبران هذا كان مصدر إلهام أنطوان ده سانت إكزوپري حين قال: «لا يحسنُ المرء الرؤيةَ إلا بقلبه؛ فالجوهر خفيٌّ عن الأنظار». ومنْ قبلُ تردَّدت هذه النظرات العميقة النفّاذة في نَظرات الصوفية والمتصوّفين، وفي عظات «الفيدا».

وإذا كان الله هو مصدرُ قانون الطبيعة الكونية، فإن القلبَ هو مصدرُ قانون الطبيعة البشرية. القلبُ هو الباب الذي يطلّ على الفردوس الأرضي، والذي لو وُضع عليه سورٌ يقيّده لا ستحال سجنًا كئيبًا. إن الحرية هي النَّسمة التي تضمن الحياة للقلب. ومن الطبيعي أن يحمل «جبران» للقلب وحريته القداسة نفسها التي يحملها لله وللقانون الطبيعي.

وهكذا يرتبط اللهُ والطبيعةُ والحريةُ والحبُّ والقلبُ برباط وثيق حتى تبدو في عينيْ «جبران» بمثابة دعائم

دين خاص به، تحيا الأرواحُ في عالمه القائم وراء الوجود، وتمضي إلى جنّته النفوس بعد التضحية من أجله، والاستشهاد في سبيله، وتحقيق الخلاص في محرابه. ويتألق الحب بينهما بوصفه الركيزةَ الأساسية في دين «جبران». إنه ينفذ إلى القلب فيغيِّره ويعيد إليه طهره الأول، حتى تصبح تجربة الحبّ بمثابة تحوُّل دينيّ أو اعتناق للدين الجديد، كما أن الحبَّ حين ينفذُ إلى قلبيْن عاشقيْن يعيد إليهما الوحدة الأولى. ذلك أن «جبران» يرى أن كلَّ عاشقيْن كانا متَّحدَيْن في الله منذ الأزل، ثم انفصلا حين هبطا إلى العالَم الأرضيّ، وسيظلان شقيَّيْن ما لم يلتقيا، فالوحدة قاسية وسط الطبيعة التي يتحدث كل شي فيها عن الحب، حتى إذا عزَّ لقاء العاشقين انقلب الإحساس بالوحدة إلى تعطُّش إلى الموت الذي تعود معه أرواح العشّاق إلى الاتحاد، وتقول روحُ كلِّ عاشق لروح معشوقته: «أنت رفيق نفسي الذي فقدتُه، ونصفي الجميل الذي انفصلتُ عنه عندما حُكِم عليَّ بالمجيء إلى هذا العالم».

والحبُّ نار خالدة أبديةُ الإشراق. إنها نفثةُ الروح الكلية التي يسمو وجودها فوق الزمان والمكان والتاريخ، بل إن «الأبدية لا تُبقي على غير الحب لأنه

مثلُها»، فليست الأبدية غيرَ الروح الكلية أو الإله «الذي لا يمكن أن يكون شيئًا سوى المحبّة والرحمة».

عالم الحب وحده هو الباقي، ولن يتفتّح كاملاً إلا حين تندثر «المدينة» التي تُجسِّد هذا العالم الأرضيَّ بأوشابه وصراعاته، بقيوده المتعارضة مع قانون الطبيعة والحرية المقدسة، بظُلمه وتمييزه بين الناس، وإفقاره مجموعة منهم وحرمانهم حقَّهم في العدل والحرية والمساواة، «المدينة» التي تُمثِّل بؤرة الشرّ في الكون، وبقعةَ الظلام الملوَّثة لنقاء النور، هذه المدينة الظالمة ستندثر، ولا يبقى من آثارها «غيرُ طلل بال يخبر الرجالَ باندحار الظلمة أمام النور». ففي عالم النور وحده يتألّق الحب.

وفي حديث «جبران» عن الحب مذهبٌ جديد:

«فالحب لا يعطي إلا ذاته، ولا يأخذ إلا من ذاته.

والحب لا يملك، ولا يملكه أحدٌ. فهو مكتفٍ بذاته..»

فإذا ما تحدث «جبران» عن العطاء، فإن حديثه ينطوي على إنسانية مرهفة، أساسُها إيمانه بوحدة الوجود؛ فيرى جبران «إنه جميلٌ أن تعطي من يسألك، وأجمل منه أن تعطي مَنْ لا يسألك؛ لأنك تدرك حاجته». بل يذهب إلى أبعدَ مِنْ هذا، فيرى

أن صاحبَ الحاجة إذا أخذ . . . أحسن إليك بأخْذِه منك .

وفي عالمنا الأرضي يحمل الفقراءُ النور في قلوبهم، وتتفتّح أمامهم أبوابُ الخلاص لينفذوا ثانية إلى السماء: مَنْبتهم ومأواهم، ومن أجلها ينتظرون الموت في شوق، ويَستقبلونه في فرح؛ فهو يمحو من شفاههم مرارَةَ الحياة الأرضية، ويزفُّهم إلى عالم الراحة والإشراق. فموتُ الأغنياء عند «جبران» يعني تحلّلهم ونهايتَهم، في حين أن موت الفقراء - كموت العشّاق - زفافٌ لهم إلى عالم السعادة والأفراح. أما الحياة فهي مصدر أفراح البشر وأحزانهم معًا. إنها البئر التي يغترفون منها ضحكاتهم بعد أن امتلأت بدموعهم، مثلما «تُريقُ الشجرةُ دمعَها على الأرض، ثم تمتصّه حليبًا من ثدييْها».

لقد مزج «جبران» بين الطبيعة والإنسان مزجًا ذاب معه كلٌّ منهما في كيان الآخر، فالإنسان هو الطبيعة، والطبيعة هي الإنسان، فهو لا يؤمن إلا بأصل واحد وخليقة واحدة وقانون واحد، وحبٍّ واحد أبديّ لا نهائيّ.

«الأرض الطيبةُ السوداء»، كانت هذه الكلمات دائمًا على شفَتيْ جبران، فقد أحبَّ الأرضَ والتراب

«آخر صورة فوتوغرافية لجبران»

وكلَّ ما نما منها، كما كان يكنُّ للأشجار إحساسًا عميقًا بالتوقير والإجلال بل بالتقديس والعبادة. وفي ذلك يقول: «لو وُجد في هذا العالم كلِّه شجرةٌ واحدةٌ ولا شجرةٌ أخرى سواها لحجَّت إليها شعوبُ الأرض وخشعتْ تحتها وعبَدَتْها». وكان يحب لَمْسَ خشب الأشجار، فالقطعة المنقصفة من غصن فى حرش أو غابة ينحني عليها ويلتقطُها ويحتفظ بها كأنها كنزٌ ثمين، وقد يحفر عليها صورةً جميلة. كما كان يعتزُّ بمجموعة من الأحجار الدقيقة يزعم أنه جَمَعَها من كل شاطئ لكل بحر من بحار هذا الكوكب. والأرض كان يتحسَّسها ويلمسها بأنامله وقد سرتْ في أعطافه فرحةٌ حقَّة تفوق متعةَ خازنِ الذَّهب وهو يتحسَّس دنانيره الزاهية المتألقة.

وكما أن الوجود كلَّه وحدةٌ متآلفة يَتَّسق فيها الإنسان مع الطبيعة ويتناغم - فالبشر كذلك مَجموعة متحدة وإن وُزِّعت بين بلاد مختلفة: «البشر ينقسمون إلى طوائفَ وعشائرَ، وينتمون إلى بلاد وأصقاع، وأنا أرى ذاتي غريبًا في بلد واحد، وخارجًا عن أمة واحدة، فالأرضُ كلها وطني، والعائلةُ البشرية عشيرتي». يقول جبران في قصيدة له يومَ عيد مولده: «لقد أحببْتُ الجنس البشريَّ كله، وأحببت الناس حبا

جما وأرى الناس في الحياة ثلاثةً: واحدٌ يلعنها وواحدٌ يباركها وواحدٌ يتأملها، فأحببت الأول لتعاسته، وأحببت الثاني لأريحيّته، وأحببت الثالث لحكمته».

وتعلو عنده وحدةُ الجنس البشريِّ فوق الزَّمن والتّاريخ والحدود، وتتمثَّل في الامتدادات الثَّقافية والخلقية والسِّياسية، ولا يتعارض الإخلاص لها مع الإخلاص القوميّ: «أحبّ مسقط رأسي ببعض محبّتي لبلادي. وأحبُّ بلادي بقسم من محبّتي للأرض وطني، وأحب الأرضَ بكلِّيتي لأنها مرتعُ الإنسانية روح الألوهية على الأرض».

النبي

وكتابُ «النبيّ» ـ بصفحاته المحدودة ـ هو الصورةُ المكتملة لجبران: تجاربُه كُلُّها فيه، كذلك عواطفُه وآماله وأحلامه وآراؤه وصوفيّتُه وفلسفتُه ونظراته. إرهاصاتُ الأمس بعد أن أصبحتْ مذهبًا له مقدِّماته ومسوّغاته ونتائجه. خيالاتُ الصِّبا بعد أن أصبحت اتجاهًا واضحًا يحدّد قواعدَ السلوك. وعمقُ الشرق وسرعةُ الغرب بعد أن تفاعلا داخل النفس الطيبة فخرجت أصولاً وقواعد. محاولاتُ

الطفولة للرسم والتصوّروالتصوير بعد أن أخذت شكلها لوحات رمزيةً تنطق بلا صوت، وتتحدث بلا كلمات . . تسبق دائما خطوطه العميقة النّفّاذة حقيقة من حقائق نفسه، ثم يشرحها بعد ذلك كلامًا ينبض بالحب والحَياة.

لقد انتهي «جبران»، بعد كلِّ ما مرَّ به من تجاربَ ومحَن، إلى أن الحب بين الناس هو شريعةُ الحياة، عنده يلتقون، وأمامه يتساوون، وعلى عتباته يزول ما بينهم من فوارق، ويذوب ما بينهم من خصومات، وعن الحب تتفرّعُ جميعُ مظاهر الحياة. العملُ أساسه الحب، وكذلك الألمُ والدينُ والحريةُ والزواجُ، وكلُّ رباط يربط بين القلوب والعقول والضمائر. ومشكلاتُ الوجود جميعُها ـ أولها وآخرها وما بينها من مراحل التقلُّب والتَّطور ـ ترجعِ عند «جبران» إلى أصل واحد، يفسّر لنا السِّرَّ المختفيَ وراء هذا الوجود، وهوَالحب. يقول عن العمل:

«أنت ـ حين تعمل ـ مزمارٌ، تتحوَّل همساتُ الدهر في جوفه إلى أنغام. ومَن منكم يودُّ لو يصبح قصبةً خرساءَ بكماء، على حين تُغني الكائنات حولَه في توحّد وتآلف؟»

ويَمضي «جبران خليل جبران» يصورِّ في قوة واقتدارٍ شرفَ العمل وقداسَة الواجب:

«أمّا إذا خلْتم ـ ساعةَ تضيقون بالحياة فتألمون ـ أنَّ مولدكم بلاءٌ، وأن تلبيةَ مطالب الجسد لعنةٌ سُطرت على الجبين ـ فإني أقول لكم: هيهات أن يمحوَ ما سُطِّر على الجبين إلاّ حبّاتُ العرق».

ثم يمضي مرة أخرى يعرض جوانب العمل وأسرارَه في عمق وبصيرة:

«ولقد نُبِّئتم أيضًا أن الحياةَ ظلام، حتى أصبحتم تردّدون من فرط الإنهاك ما يقوله المنهكون.

ولعَمْري إن الحياة ظلام، إلاّ إذا صاحبَها الحافزُ.

وكلُّ حافزٍ ضريرٌ، إلاّ إذا اقترنَ بالمعرفة.

وكلُّ معرفةٍ هباءٌ، إلاّ إذا رافقَها العملُ.

وكلُّ عملٍ خَواءٌ، إلاّ إذا امتزج بالحب.

فإذا امتزج عملُك بالحبِّ فقد وصلت نفسَك بنفسك، وبالناس، وبالله».

ويقول جبران في الحديث عن العطاء:

«لا ريبَ أن من استحق أن ينال أيامَ عمره ولياليَه لجديرٌ بأن ينال سواها منك.

وأن من استحق أن ينهلَ من محيط الحياة لجدير بأن يملأ كأسَه من جدولك الصغير.

وأيُّ جـزاء يعلو عـلى جـزاء مَنْ يتـقـبَّل العطاء في شجاعة وثقة، بل وفي محبّة وسماحة؟»

ولعل جبران في قوله هذا كان يستلهم ما ورد في قصة إبراهيم الخليل في «بستان» الشاعر سعدي الشيرازي التي تروي قصة طرد إبراهيم ضيفًا عجوزًا بعد أن اكتشف أنه من المجوس عبّاد النار، فنزل عليه جبريل ينكر عليه ما فعل، مذكّرًا إيّاه بكرم الله الذي وسع هذا الشيخ أعوامًا مائة، وكيف بإبراهيم لا يتّسع لإيواء الشيخ ساعة من نهار؟

إن جبران يخرج علينا من شاعريّته الرقيقة الملهمَة النَّفّاذة، بفلسفته البسيطة الأصيلة كالتاريخ، المنطقيَّة المتقدّمة المندفعة كالتيار. والمتأمِّلُ في هذه الفلسفة يجدها قديمةً وجديدة معًا شأنها شأن الفنون. وقد تردّدت أسسُها في أفكار القدماء والمحدَثين ممن تناولوا العقائد والفلسفات بالبحث والدراسة، وممن مارسوا ألوان الفنون.

وإذ كان جبران مسيحيا فما من شك في أنه تأثَّر بأسلوب الكتاب المقدَّس، لا سيَّما ترجمتُه الإنجليزية الرسمية في عهد الملك جيمس الأول، التي استلهمَ أسلوبَها ذا الروح الشاعرية بعنصريْه الإيقاعي والوصفيِّ، الذي جاء على العكس من الترجمات

الحرفيَّة الأخرى عن الأصول العبْرية واليونانيَّة. وعلى الرغم من أن أعمال جبران تشيع فيها الروحُ الإنجيليَّةُ إلا أنَّنا نلمس فيها أيضا تأثّره بما جاء في نشيد الأنشاد التوراتيّ من مجازات مفرطة، وأسلوب ترنيميّ.

عاشت فكرة كتاب «النّبي» طويلا كامنة في سر المؤلف، وباتت جوهر تأمله الباطني الذي أصبح في الوقت نفسه تأملاً شعريًا.

وفي وجدان الشاعر يستحيل التأمل الشعري إلى تأمل صوفي، بعيد مثله عن عالم المنطق، سابح في دنيا من الحقائق المذهلة التي تقصر الألفاظ عن إبرازها والتعبير عنها.

كلمات الشاعر وحدها هي التي تحمل شحنات فريدة من التعبير، تستطيع بوساطتها أن تفتح قلوبنا لنرى العالم السحري الخبيء وراء الكلمات.

وقد كان «جبران» يرسم الفكرة أولاً ثم يشرحها بالألفاظ. وفى اللوحة التي تمثّل شخصية «النبي»نرى أنه تصوّر النبي معلمًا، له من الشخصية ومن التأثير وقوة البصيرة وشفافية الروح ما يجعل منه نبيا ينطوي وجوده على سرّ كبير، وكذلك لوحاته الأخرى في كُتبه، وما تمثّله من أفكار وآراء. قِطَعٌ من نفسه سبقت ألفاظه.

لقد أراد «جبران» بكتابه « النبي » أن يقدِّم لنا نفسَه، ويقدِّمَ لنا مع نفسه صورةً صحيحةً للإنسان الكامل الذي أسفرت تجاربُه عن ضرورة وجوده لإصلاح نفوس البشر. وبهذا المعيار نفسه يقوِّم جبران عملَه. فهو يرى أن كلَّ ما فعله ليس إلاّ عرضًا لفكْره حين غَرسَ في وجدان «النَّبيّ» مُثُلاً آمن أنه لا بدَّ من ممارستها في الحياة؛ فالتوقّفُ عند كتابتها لا يعني شيئًا، لكن اقترانَها بالتطبيق في الحياة اليومية هو الذي يُعطيها بُعدَها الحقيقيَّ. وتلك رسالةُ جبران. لقد عَرف الخطيئة بنفسه وعاش فيها، وعن طريق تجاربه أدرك نقائصَ النفس الإنسانية، وشَعَر بحاجتها إلى معلِّم يقودها إلى ما غَمُضَ عليها من أسرار هذا الوجود.. ثم.. لعله بين خطاياه وتجاربه، كان يشعر ـ شأن كلِّ الفنانين والعباقرة ـ أنه هو، وربما وحدَه الذي اهتدى إلى هذا السِّرِّ ووقفَ عليه وفَهم حقيقته. ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يخرج لنا بكتابه «النبيّ» يطلُّ به على العالم بشخصية المعلِّم المستنير. ولم يكنْ هذا الغرورُ بِدْعًا بعد حياة مليئة بالمحن والتجارب والآلام.

لقد وصل جبران في كتاب «النَّبيّ» إلى القمة، ولم يكن يريدُ بعده أن ينحدر. على أنه بعد تفكير طويل

وضعَ في ذهنه الخطوط الأساسيّة لبقية إنتاج حياته، في سلسلة تعالج بقيةَ صلات الإنسان. فبعد أن تناول في «النَّبيّ» صلات الإنسان بأخيه الإنسان، أرادَ أن يعالج صلات الإنسان بالطبيعة في «حديقة النبي»، فمضى يشرحُ لتلاميذه التسعة ترابط الأشياء صغيرها وكبيرها: قطرة الندى مع المحيط، والشمس مع الحباحب، والهواء مع طرق الفضاء، والفصول مع النهار والليل، والنور مع الظلام. كذلك أراد أن يختم هذه السلسلة «بموت النبي» بعدَ عودته من جزيرته، فتتوافدُ عليه جماعات شتَّى يتحدث إليها عن الأثير في الفضاء، وعن الأمس والغد، وعن الفصول الأربعة، وعن النموّ والولادة، وعن تساقُط الثلوج، وعن الدُّخان والنار، وعن سجن «النبي»، ثم ذهابه إلى الساحة العامة لرجمه بعد إطلاق سراحه. على أن صَبْرَه لم يطاوعْه حتى يُكمل مشروعَه فأخرج كتابَه «رمل وزبد» ليسدَّ به فراغَ حياته الفكرية. وهذا الكتاب هو في حقيقته امتدادٌ لكتاب جبران «النبي». ولسوف يحسُّ القارئ في الكثير من فقرات هذا الكتاب أنها أصداء تردِّدُ ما جاء على لسان «المصطفى» في كتاب «النبيّ»: « فإن قوله في كتاب «رمل وزبد»: «الحب الذي لا يُضفي على نفسه جديدًا كلَّ يوم يُصبح عادة، ثم لا يلبث أن يكون رقًّا» ، أو «يعانق المتحابَّان ما بينهما

من ودٍّ أكثر مما يعانق أحدهما الآخر» يمكن أن يكون تتمّة لما جاء بكتاب النبيّ فى موعظة «الحب». وقوله فى كتاب «رمل وزبد»: ليس الجودُ أن تعطيَني ما أنا أشدُّ منك حاجة إليه، وإنما الجودُ أن تعطيَني ما أنتَ أشدُّ إليه حاجةً مني»، يمكن أن يكون تتمّة لما جاء بكتاب «النبي» في موعظة «العطاء». وقوله في كتاب «رمل وزبد»: «إنما نعيش لنهتديَ إلى الجمال، وكلُّ ما خلا ذلك لونٌ من الانتظار» يمكن أن يكون تتمّةً لما جاء بكتاب «النبي» في موعظة «الجمال». ومن هذه النماذج يتضح أن ما جاء في كتاب «رمل وزبد» هو تَرْدادٌ لما جاء في كتاب «النبي» مع شيء من الإضافة والتلوين في الأسلوب والجنوح إلى الرمز.

وقبل أن ينتهي من عناصر كتاب «حديقة النبيّ» توقّف فجأة ليخرج لنا كتابه «عيسى ابن الإنسان». وفى هذا الكتاب استطاع أن يضع للمسيح الصورة التي أرادها هو، وإن احتفظ بالقالب التقليدي الذي اعتاد أن يستعمله كل مَنْ ألّف عن المسيح. لقد أراد جبران أن يحطّم الصورة التي رسمها المؤرخون للمسيح رجل العزم والرأفة، وأنه لم يكن مسكينا أو ضعيفًا ولا مشعوذا أو ساخراً، بل بشراً كسائر البشر جميعا. ولم يكن جبران في كتابه عن المسيح مؤرخًا، ولكنه كان

شاعرًا وصوفيا يعبّر عن نفسه. فلما فرغ من الكتابة عن المسيح عاود الكرّة ليتمّ حلقاته التي ادّخرها، فكان كتاب «حديقة النبيّ».

على أن المرض ـ وكان قد بدأ يدبُّ في «جبران» منذ صدَر له كتابُ «النبي» ـ حال بينه بين صدور كتابه الأخير «موت النبي»، فأصدر بدلاً منه «أرباب الأرض»، ومات «جبران» في سنة ١٩٣١ قبل أن يموت النبيُّ الذي تصوَّره.

وتوقفُنا المرحلة الأخيرةُ من حياة «جبران» على أنه أخذ يقاوم العلّة ويستهين بالداء، ويحاول أن يتغلّبَ على ما في جسده من ضعف، ليبدو أمام الناس قويا صلبَ العود. ولم يكن يستطيع أن يخدعَ نفسه والعلّةُ تنهش فيه، والداء يستبدُّ به، فتغيَّر تفكيرُه، وتغيّرت كذلك أمانيه، وتغيّر سلوكه الخاص: فبعد أن كان يقسو في نقده على بني وطنه، أخذ يتمنّى لو عاد إلى لبنان ونجا من مظاهر المدنية الغربية في أمريكا. وبعد أن كان حريصًا على أن يذوقَ من مُتع الحياة ما طاب له وهو لا يزال أعزب تعويضًا عما تعرّض له من حرمان، تمنّى بأخرَة أن لو كان زوجًا سعيدًا وربَّ أسرة يعول أفرادَهاَ. ولكن الفرصَة كانت قد أفلتتْ من الجسد المريض الخاوي، والروحِ المكدودةِ المُرهَقة.

هكذا مضَى «جبران» بعد إنتاج لم يكن وليدَ الرفاهية والاسترخاء، بل كان قرينَ سلسلة من المحن والآلام. لقد كان إنتاجًا مغموسًا في الأسى، إنتاجًا أقربَ إلى الصيحة تنطلق من قلب جريح. والألمُ الكبير قد يحطِّم صاحبه فيقضي عليه، فإذا صادف نفسًا كنفس «جبران» تحوَّل إلى طاقة خصبة منتجة تدفعُه إلى أمَلٍ وعملٍ أكبر.

وإني أبسطُ في هذه السيرة لقراء العربية لونًا من ألوان أدب المهجر لعملاق عربيّ مغترب نَسجَ فيه أروع محاولة للتعبير عن الهروب من هذا المهجر إلى عالم خياليّ تتراءى فيه صورةُ الوطن المفقود التي عاشت في ذكرياتِ الطفولة وأحلام الشباب.

وقد آثرت إصدار كتاب «النبي» فى طبعته هذه التاسعة والأخيرة - شأنها شأن الطبعة الأولى - مشتملة على ترجمة موازية للنصّين الإنجليزي والعربي متقابلتيْن، ليقف مَنْ يريد دراسة جبران على إنتاجه فى الصورة الأولى التى وضع فيها ذلك الإنتاج. ولا أقول إني قدّمته صورة من طبعاته السابقة، بل لقد عنّ لي في مواضع منه رأي في الترجمة وجدته أوْلى فبدّلته على النحو الذي بدا لي أصلح من سابقه، والمرء متزوّد مع الزمن من حياته ما عاش، وهو لهذا مُعيدٌ النظر فيما

كتب إن بدا له أن يعيده، وهو إن لم يفعل عاش على غير رضى من نفسه، وما أستطيع أن أختم كلمتي دون الاعتراف بفضل النقّاد الذين أعانني نقدهم على إعادة فقرات لتخرج أكثر استقامة وأكثر قدرة على الوفاء بالمعنى.

ثروت عكاشه

المعادي في ١٨ فبراير ١٩٩٩

جبران خليل جبران

النبي

المصطفى المختار الحبيب، كان فجرًا لزمانه، ظلَّ اثنتيْ عشرةَ سنة بمدينة أورفاليس يترقَّب سفينته، وكانت إلى عوْدة؛ لترجع به إلى الجزيرة التي شهدت مولده.
وفي السَّنة الثانيةَ عشرةَ، في السّابع من أيلول (سبتمبر)، شهر الحَصاد، ارتقى المصطفى التَّلَّ فيما وراء أسوار المدينة، ورمى ببصره إلى البحر، فلمحَ سفينته تأتي مع الغَمام. وهنا انفرج شَغافُ قلبه، وطارت فرحتُه بعيدًا حتى رفَّت على البحر، وأطبق المصطفى عينيه يردِّدُ الصّلوات في مِحْراب السُّكونِ من روحه.

* * *

وحين هَبَطَ التَّلَّ لفَّته غَمامةُ حُزنٍ فراح يحدِّثُ نفسه:

أنَّى لي أن أمضي مُطْمَئنا خالي البال من الأشجان؟

لن أبرحَ هذه المدينةَ إلا وفي الروح جروح.

طويلةً كانت أيام أسايْ بين أسوارها، وطويلة كانت ليالي وَحْدَتي فيها؛ ومَن ذا يستطيع أن يَنْفَصِلِ عن أساه ووَحْدَته غيرَ آسِفٍ؟

Al Mustafa the chosen and the beloved, who was a dawn unto his own day, had waited twelve years in the city of Orphalese for his ship that was to return and bear him back to the isle of his birth. And in the twelfth year, on the seventh day of Ielol, the month of reaping, he climbed the hill without the city walls and looked seaward; and he beheld his ship coming with the mist. Then the gates of his heart were flung open, and his joy flew far over the sea. And he closed his eyes and prayed in the silences of his soul.

***

But as he descended the hill, a sadness came upon him, and he thought in his heart:

How shall I go in peace and without sorrow?

Nay, not without a wound in the spirit shall I leave this city.

Long were the days of pain I have spent within its walls, and long were the nights of aloneness; and who can depart from his pain and his aloneness without regret?

كم من حبّات للرّوح نثرتُ في هذه الطرُقات ،
وكم من أطياف ولّدها حنيني تجري عارية بين تلالها ؛
فلا أستطيعُ أن أنشقّ عنها إلاّ بأثقال وأوجاعٍ .

ليس ما أنزِعُه اليومَ ثوبًا، بل جِلْدي أمزّقه بيديّ هاتَيْن .

ولستُ أنزِعُ فِكْرَةً أُخلّفُها وَرائي ، بل هو قلب رقّ بالجوع والظمأ .

* * *

على أنه ليس لي أن أطيل البقاء؛

فالبحر الذي يَهْتف بكلّ الكائنات إليه يهتف بي أنْ أقْبِلْ ، ولا مَفَرَّ من نَشْرِ الشِّراع ـ

فإن بقيتُ جَمُدْتُ وتَبَلْوَرْتُ واحتواني قالبٌ برغم ليل لَهّاب يُحْرِق السّاعات .

ليتني أستطيعُ أن أصطحبَ معي كُلَّ ما حولي هنا . لكن ما السّبيل؟

الصَّوتُ حين يَنْطَلقُ لا يَحْمِلُ معه جناحَيْه لسانَهُ وشَفَتَهُ ، لكنه يمضي وَحيداً يَنْشُدُ الأثير .

كذلك النَّسْر ، وحيداً ينطلق بِلا وكْرِه ، يروم الشَّمْس .

* * *

Too many fragments of the spirit have I scattered in these streets, and too many are the children of my longing that walk naked among these hills, and I cannot withdraw from them without a burden and an ache.

It is not a garment I cast off this day, but a skin that I tear with my own hands.

Nor is it a thought I leave behind me, but a heart made sweet with hunger and with thirst.

***

Yet I cannot tarry longer.

The sea that calls all things unto her calls me, and I must embark.

For to stay, though the hours burn in the night, is to freeze and crystallize and be bound in a mould.

Fain would I take with me all that is here. But how shall I?

A voice cannot carry the tongue and the lips that gave it wings. Alone must it seek the ether.

And alone and without his nest shall the eagle fly across the sun.

***

والآن، حين بلغ المصطفى سَفْحَ التَّلِّ استدار يستقبلُ البحر ثانيةً، فشاهد سفينته تقترب من الميناء، وفي مقدِّمتها ملاّحون من وطنه،

فهَتَفَ بهم من الأعماق:

أبناءَ أمّي الأزليَّة، يا فُرْسانَ الموج،

ما أكثر ما أبْحرتْم في أحلامي. وأنتم الآن تَفدون في يَقظتي، وهي أعمقُ أحلامي.

هأنذا على أهْبَة الرَّحيل، وقد أطلقتْ لهفتي شِراعَها كاملاً تَرْتَقِبُ الريح.

لم يَعُد لي سوى نَسْمَة واحدة أتنسَّمها في هذا الجو الساكن؛

لم يَعُد لي غيرُ نَظْرَة حُبٍّ واحدة ألقيها على ما كان؛

ثم أنتظم في صفوفكم ملاّحًا بين ملاّحين.

وأنت أيها البحر الفسيح، بل الأم الهاجعَة،

يا مَن في صدرك وحدك يجد النهرُ والجدولُ السّلامَ والحريَّة.

Now when he reached the foot of the hill, he turned again towards the sea, and he saw his ship approaching the harbour, and upon her prow the mariners, the men of his own land.

And his soul cried out to them, and he said: Sons of my ancient mother, you riders of the tides,

How often have you sailed in my dreams. And now you come in my awakening, which is my deeper dream.

Ready am I to go, and my eagerness with sails full set awaits the wind.

Only another breath will I breathe in this still air, only another loving look cast backward,

And then I shall stand among you,

a seafarer among seafarers.

And you ,vast sea, sleeping mother,

Who alone are peace and freedom to the river and the stream,

ما هي إلا انْثناءةٌ أخرى فحَسْبُ لهذا الجدول ،

ثم ما هي إلا هَمْسةٌ واحدة في هذه الغابَة ،
حتى آتي إليك قطرةً طليقةً في مُحيط غير مَحْدود .

* * *

وبينما هو ماض في طريقه ، إذ آنَسَ على البُعْد رجالاً ونساءً قد تركوا حقولَهم وكُرومَهم مُسْرِعينَ نحو أبواب المدينة .

سمع أصواتَهم تنادي اسمَه ، وتَتجاوبُ من حقل إلى حقل ، مُعْلنَةً مَقْدَم سفينته .

* * *

فراح يحدِّث نفسه :

تُرى هل يكون يومُ الفِراق هو بعينه يومَ التّلاقي ؟

وهل يُقال إن ساعة غروبي كانت في الحقّ ساعَةَ مطْلعي ؟

وماذا أنا مُعطي مَن ترك محْراثه في إبّان الحَرْث ، أو مَنْ أوقف عجلة مِعْصَرته ؟

only another winding will this stream make, only another murmur in this glade,

And then I shall come to you, a boundless drop to a boundless ocean.

***

And as he walked he saw from afar men and women leaving their fields and their vineyards and hastening towards the city gates.

And he heard their voices calling his name, and shouting from field to field telling one another of the coming of his ship.

***

And he said to himself:

Shall the day of parting be the day of gathering?

And shall it be said that my eve was in truth my dawn?

And what shall I give unto him who has left his plough in midfurrow, or to him who has stopped the wheel of his winepress?

ألقلبي أن يصير شجرة حافلةً بالثِّمار؛ كيما أقطفُ منها لهم وأعطي؟

وهل تتدفَّق أمانيَّ كالمناهل؛ كيماأُتْرِعُ كؤوسهم؟

ليتني كنت قيثارةً فتمسَّني يدُ العَليِّ القَدير، أو مِزْماراً حتى تنسابَ خلالي أنفاسُه؟

إنما أنا ساعٍ إلى السَّكينة. تُرى أيَّ كنز لقيت في ظِلِّها؛ فأنثره في ثِقَة واطمئنان؟

إذا كان اليومُ يومَ حَصادي، ففي أيِّ الحقول قد نثرت بذوري، وفي أيَّة فصول غابت عنيّ الآن ذكراها؟

إن كانت هذه هي حتمًا اللَّحظة التي أرفع فيها مِصْباحي، فلن تكون الشُّعْلَة التي ستضيء فيه هي شُعْلَتي،

ولسوف أرفع مِصْباحي خاليًا مُظْلمًا.

وإن مَنْ يحرسُكم بالليل سوف يملؤه بالزَّيْت، وسوف يوقِدُه لكم.

* * *

هذه أمور عبَّر عنها المصطفى بالكَلمَة، وظلَّ الكثير

Shall my heart become a tree heavy-laden with fruit that I may gather and give unto them?

And shall my desires flow like a fountain that I may fill their cups?

Am I a harp that the hand of the Mighty may touch me, or a flute that his breath may pass through me?

A seeker of silences am I, and what treasure have I found in silences that I may dispense with confidence?

If this is my day of harvest, in what fields have I sowed the seed, and in what unremembered seasons?

If this is indeed be the hour in which I lift up my lantern, it is not my flame that shall burn therein.

Empty and dark shall I raise my lantern,

And the guardian of the night shall fill it with oil and he shall light it also.

***

These things he said in words. But much

في قلبه مكنونًا، لم يستطع حتى هو أن يبوح بسِرِّه العميق.

* * *

ولمّا دخل المدينة خَفَّ إلى لقائه كلُّ أهليها هاتفين باسمه، كأنهم يهتفون بصوت واحد. وتقدَّم الشيوخ وقالوا:

لا تُعَجِّل بالرَّحيل عنّا.

لقد سطعْتَ في غَسَق حياتنا كالشَّمْسِ في رائعة النَّهار، وأمدَّنا شبابُك بأحلام نحلُمُها.

لستَ بيننا ضَيْفًا ولا غريبًا، بل أنت ولَدُنا الحبيب عَشِقَتْه أرواحنا؛

فَلا تترِكْ أبصارَنا منذ الآن عَطْشَى إلى ملامح وَجْهِك.

* * *

وانبرى الكَهَنَة والكاهنات له بقولهم:

لا تدع أمواجَ البحر تُفَرِّق بيننا الآن، ولا تجعل السِّنين التي قضيتَها بين ظَهْرانينا تؤول إلى ذكرى؛

in his heart remained unsaid. For he himself could not speak his deeper secret.

***

And when he entered into the city all the people came to meet him, and they were crying out to him as with one voice.

And the elders of the city stood forth and said:

Go not yet away from us.

A noontide have you been in our twilight, and your youth has given us dreams to dream.

No stranger are you among us, nor a guest, but our son and our dearly beloved.

Suffer not yet our eyes to hunger for your face.

***

And the priests and the priestesses said unto him:

Let not the waves of the sea separate us now, and the years you have spent in our midst become a memory.

فقد طُفْتَ بنا رُوحًا، وكان ظلُّك لنا نورًا يشيعُ في وجوهنا.

فَلَشدَّ ما أحبَبْناك حُبا صامتًا مصونًا وراء قناع، ولكنه يهتف بك الآن عاليًا، يتمنَّى لو يقف سافِرًا بين يَدَيْك.

وهكذا الحبُّ أبدًا لا يَعْرِفُ ما له من غَوْر إلا ساعة الفِراق.

* * *

وجاء قومٌ آخرون يتوسَّلون إليه ألاَّ يُفارقهم، غير أن المصطفى لَزِمَ الصَّمْتَ ثم أطْرَقَ، ورأى الواقفون إلى جواره عَبَرَاتٍ تَسيلُ على صَدْره.

ومضى ومضى القومُ معه إلى السّاحة الكُبرى قُدّام المعْبَد.

* * *

ومن كَنَفِ الهيكل طلعت عليهم امرأة عرّافةٌ تُدْعى «المِطرا».

فنظر إليها نظرة تجيشُ بالحنان؛ إذ كانت أول من

You have walked among us a spirit, and your shadow has been a light upon our faces.

Much have we loved you. But speechless was our love, and with veils has it been veiled.

Yet now it cries aloud unto you, and would stand revealed before you.

And ever has it been that love knows not its own depth until the hour of separation.

***

And others came also and entreated him. But he answered them not. He only bent his head; and those who stood near saw his tears falling upon his breast.

And he and the people proceeded towards the great square before the temple.

***

And there came out of the sanctuary a woman whose name was **Almitra**. And she was a seeress.

And he looked upon her with exceeding tenderness, for it was she who has first

سعى إليه وصَدَّق به ولَمّا يمض على وصوله إلى المدينة غير يوم واحد. وأهَلَّتْ به المرأة مُرحِّبة وقالت:

يا نبيَّ الله، يا مَن سعى وراء أسمى الغايات، يامَنْ ظلَّ يَتَطَلَّعُ إلى الآفاق بحثًا عن سفينته.

ها هي ذي قد آبَتْ، وأصبح رحيلُك أمرًا محتومًا.

ألا ما أعظم حنينَك إلى مهد ذكْرياتك، ومَوْطن رَغَباتك الجسام. فحبُّنا لن يُقيِّدَك، وحاجاتنا لَن تَسْتَوقفَك؛

غير أنّا سائلوك قبل أنْ ترحل عنا أن تتحدَّث إلينا؛ فتزوِّدَنا مما عندك من الحقِّ،

وسنزوِّدُه أبناءنا من بعدنا، وسيزوِّدونه هم أبناءهم من بعدهم، ولن يَبيد.

في وحدتك كنتَ موصولاً بأيامنا، و في يقظتك كنتَ تستمعُ إلى ما يتخلَّلُ هَجْعَتَنا مِنْ بكاء وضحك.

والآن نَضْرَعُ إليك أن تكشف لنا عن خبايا

sought and believed in him when he had been but a day in their city. And she hailed him, saying:

Prophet of God, in quest of the uttermost, long have you searched the distances for your ship.

And now your ship has come, and you must needs go.

Deep is your longing for the land of your memories and the dwelling-place of your greater desires; and our love would not bind you nor our needs hold you.

Yet this we ask ere you leave us, that you speak to us and give us of your truth.

And we will give it unto our children, and they unto their children, and it shall not perish.

In your aloneness you have watched with our days, and in your wakefulness you have listened to the weeping and the laughter of our sleep.

Now therefore disclose us to ourselves,

نفوسنا، وتُطْلِعَنا بما أوتيتَ من علمٍ على ما يقوم بين الحياة والمماتَ.

* * *

فأجابهم المصطفى: « يا أهلَ أورفاليس، هل أنا مُحَدِّثكُم إلاّ بما يدور الآن في أحْناءِ سَرائركم؟ »

and tell us all that has been shown you of that which is between birth and death.

***

And he answered:

People of Orphalese, of what can I speak save of that which is even now moving within your souls?

وانْبَرَتْ «أَلمِطْرا» وقالت له: حدِّثنا عن

الحب

رفع المصطفى رأسَه مُشْرِفًا على القوم فغَشِيَهُم السُّكون، وفي صوت عَرِيضَ قال:

إذا أوْمَأ الحبُّ إليكم فاتبعوه، وإن كان وَعِرَ المسالك، زَلِقَ المُنْحَدَر.

وإذا بَسَطَ عليكم جناحيْه فأسْلموا له القِياد، وإن جرحكم سيفُه المستور بين قَوادِمه.

وإذا حَدَّثكم فصَدِّقوه، وإن كان لصوته أن يَعْصِفَ بأحلامكم كما تعصفُ ريح الشَّمال بالبُسْتان.

* * *

إن الحبَّ إذ يُكَلِّل هاماتكم، فكذلك يشدُّكم على الصَّليب.

وهو كما يشدُّ من عودكم، كذلك يُشَذِّبُ منكم الأغصانَ.

Then said Almitra, Speak to us of *Love*.
And he raised his head and looked upon the people, and there fell a stillness upon them. And with a great voice he said:

When love beckons to you, follow him,
Though his ways are hard and steep.

And when his wings enfold you yield to him,
Though the sword hidden among his pinions may wound you.
And when he speaks to you believe in him,
Though his voice may shatter your dreams as the north wind lays waste the garden.

***

For even as love crowns you so shall he crucify you.

Even as he is for your growth so is he for your pruning.

وكما يرتقي إلى قنن هاماتكم ويداعب أغصانكم الغَضَّة تَميس[1] في ضوء الشمس،

كذلك يهبط إلى جذوركم العالِقَة بالأرض فيهزّها هزّاً.

* * *

ويضمُّكم إلى أحضانه كما يضمُّ حُزْمَة قمح؛

فيَدْرُسُكم لكي يُعَرِّيكُم،
ثم يُغَرْبِلُكم فيخلِّصكم من القشور،
ثم يطحنكم فيُحيلكم دقيقًا أبيضَ،
ثم يَعْجِنكم ليَسْلسَ قيادُكم،
ثم يُسْلمكم إلى نار هَيْكَله المقدّسة؛ علَّ أن تصيروا الخَبزَ المقدَّس لمائدة الرَّبِّ المقَدَّسة.

* * *

كل هذا يفعله الحبُّ بِكُم كي تعرفوا أسرار قلوبكم، وبهذه المعرفة تصبحون فِلْذَةً من قلب الوجود.

---

(١) تميس: تختال.

Even as he ascends to your height and caresses your tenderest branches that quiver in the sun,

So shall he descend to your roots and shake them in their clinging to the earth.

***

Like sheaves of corn he gathers you unto himself.

He threshes you to make you naked.

He sifts you to free you from your husks.

He grinds you to whiteness.

He kneads you until you are pliant;

And then he assigns you to his sacred fire, that you may become sacred bread for God's sacred feast.

***

All these things shall love do unto you that you may know the secrets of your heart, and in that knowledge become a fragment of life's heart.

أمَّا إذا دَبَّ فيكم الخوفُ فلم تَنْشُدوا في الحبِّ إلا الدَّعَة والمتْعَة.

فأوْلى بكم أن تستروا عُرْيكم، وتغادروا بَيْدَر المحبَّة إلى عالم لا تَتَعاقَبُ فيه فصول،

حيث تضحكون ولكن دون استغراق،

وتبكون ولا تَنْهَمِرُ كلُّ الدُّموع.

* * *

فالحبُّ لا يُعطي إلا ذاته، ولا يأخذ إلاّ من ذاته.

والحبُّ لا يَمْلِك، ولا يَمْلِكه أحد؛

فالحبُّ حسبُه أنه الحبُّ.

* * *

إذا أحببت، فلا تقلْ: «لقد وَسعَ قلبي الله».

بل قلْ: «وَسعَني قلبُ الله».

ولا تَظُنَّن أنك قادر على توجيه مَسْرى الحبِّ؛

فإنما الحبُّ يَقودك إن وجدك خليقًا به.

* * *

But if in your fear you would seek only love's peace and love's pleasure,

Then it is better for you that you cover your nakedness and pass out of love's threshing-floor,

Into the seasonless world where you shall laugh but not all of your laughter,

and weep, but not all of yours tears.

***

Love gives naught but itself and takes naught but from itself.

Love possesses not nor would it be possessed;

For love is sufficient unto love.

***

When you love you should not say, "God is in my heart," but rather, "I am in the heart of God."

And think not you can direct the course of love, for love, if it finds you worthy, directs your course.

***

الحبُّ لا يَنْشُدُ إلاّ تحقيق ذاته،

فإذا أحببت ولم يكن بدٌّ من أن تُساوِرك رغبات، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوبَ حتى تُصبحَ كالغَدير المنْساب، يشدو لِلَّيل بألحانه؛

وأن تحَسَّ الألم النابع من فَيْضِ حنان دافق؛

وأن تَتَقَبَّلَ الجُرْحَ ينتابك من إحاطة ذاتك لمعنى الحبِّ؛

وأن تَبْذُلَ دمَك عن رضًا وابتهاج؛

وأن تنهضَ مع الفجر بقلب مُجَنَّح؛ لتستقبل شاكرًا يومًا في الحبِّ جديدًا؛

وأن تقيلَ مع الظَّهيرة، مُسْتَغْرِقًا في نشوة الحبِّ؛

وأن تعودَ مع الأصيل إلى مأواك يمورُ صدرُك بالامتنان؛

ثم تَخْلُدَ إلى النوم، وقلْبك يُسَبِّحُ بمن تهوى، وشفتاك تُتَمْتمان بأنْشودة الحمد.

Love has no other desire but to fulfil itself.

But if you love and must needs have desires, let these be your desires:

To melt and be like a running brook that sings its melody to the night.

To know the pain of too much tenderness.

To be wounded by your own understanding of love;

And to bleed willingly and joyfully.

To wake at dawn with a winged heart and give thanks for another day of loving;

To rest at the noon hour and meditate love's ecstasy;

To return home at eventide with gratitude;

And then to sleep with a prayer for the beloved in your heart and a song of praise upon your lips.

واستأنفت «ألمِطْرا» حديثها: وما قولك، أيها المعلم في

الزّواج

فأجاب قائلاً:

لقد وُلِدتُما معًا، ومعًا تظلاّن إلى الأبد،

ومعًّا تكونان، حينما تذهب بأيامكما أجنحةُ الموت الشَّهْباء.

أجل كذلك تظلان معًا، في سِرِّ الله المكْنون.

ولكن، فَلْيَتَخَلَّلِ التئامكما فُسْحات؛

حتى تُتيحا لرياح السَّماوات أن ترقص بينكما.

* * *

ليُحبَّ أحدكُما الآخر، ولكن لا تجعلا من الحبِّ قيداً،

بل اجعلاه بحرًا مُتَدَفِّقًا بين شواطئ أرواحكما.

وليملأْ أحدكما كأس رفيقه، وحذارِ أن تشربا من كأس واحدة.

Then Almitra spoke again and said,

And what of *Marriage*, master?

And he answered saying:

'You were born together, and together you shall be for evermore.

You shall be together when the white wings of death scatter your days.

Aye, you shall be together even in the silent memory of God.

But let there be spaces in your togetherness.

And let the winds of the heavens dance between you..

***

Love one another, but make not a bond of love:

Let it rather be a moving sea between the shores of your souls.

Fill each other's cup but drink not from one cup.

ولْيُعْطِ أحدكما الآخر من خبْزه، وحَذار أن تجتمعا على رغيف واحد.

غنِّيا وارقصا وامرحا معًا، ولكن لِيَخْلُ كلٌّ إلى شأنه؛

فإن أوتارَ القيثارة مشدودة على افتراق، وإن خَفَقتْ جميعًا بلحن واحد.

* * *

ولْيَهَبْ كلٌّ منكم قلبَه لعشيره، لكن دون أن يستأثر به،

فَلِيَدِ الحياةِ وحدَها أن تَسَعَ قلبيْكُما.

ولتنهضا متكافليْن، لكن دون أن تتلاصقا؛

فإن أعمدة المعبد على انفصال تقوم،

والسَّنْديان والسَّرْو لا ينمو بعضُها في ظلِّ بعض.

Give one another of your bread but eat not from the same loaf.

Sing and dance together and be joyous, but let each one of you be alone,

Even as the strings of a lute are alone though they quiver with the same music.

***

Give your hearts, but not into each other's keeping.

For only the hand of life can contain your hearts.

And stand together yet not too near together:

For the pillars of the temple stand apart,

And the oak tree and the cypress grow not in each other's shadow.

وقالت امرأة تضمُّ رضيعَها إلى صدرها: ألا حدِّثنا عن

الأطفال

فقال المصطفى:

إن أطفالكم ما هم بأطفالكم؛

فلقد ولَدهم شوقُ الحياة إلى ذاتها،

بِكُم يخرجون إلى الحياة، ولكن ليس منكم

وإن عاشوا في كَنَفِكُم فما هُم مِلْكُكُم.

* * *

قد تمنحونهم حُبَّكم ولكن دون أفكارِكم،

فلهم أفكارُهم.

ولقد تُؤْوون أجسادَهم لا أرواحَهم؛

فأرواحُهم تسكُن في دار الغَد، وهيهات أن تلمّوا به، ولو في خَطَرات أحلامكم.

وفي وُسْعكم السَّعي لتكونوا مثلهم، ولكن لا تحاولوا أن تجعلوهم مثلكم؛

And a woman who held a babe against her bosom said,

Speak to us of *Children*.

And he said:

Your children are not your children.

They are the sons and daughters of Life's longing for itself.

They come through you but not from you,

And though they are with you, yet they belong not to you.

***

You may give them your love but not your thoughts,

For they have their own thoughts.

You may house their bodies but not their souls,

For their souls dwell in the house of to-morrow, which you cannot visit, not even in your dreams.

You may strive to be like them, but seek not to make them like you.

فالحياة لا تعود القَهْقَرى، ولا هي تَتَمَهَّل عند الأمس.

أنتم الأقْواس، منها ينطلقُ أبناؤكم سهامًا حيَّة.

والرّامي يرى الهدَفَ قائمًا على طريق اللانهاية، **ويشدُّكم** بقدرته حتى تنطلق **سهامُه** سريعة إلى أبعد مَدى.

وليكن انحناؤكم في يد **الرّامي** عن رضًا وطِيبِ نَفْس؛

لأنه كما يُحبُّ السَّهم الطائر، كذلك **يحبُّ** القوْسَ الثابتة.

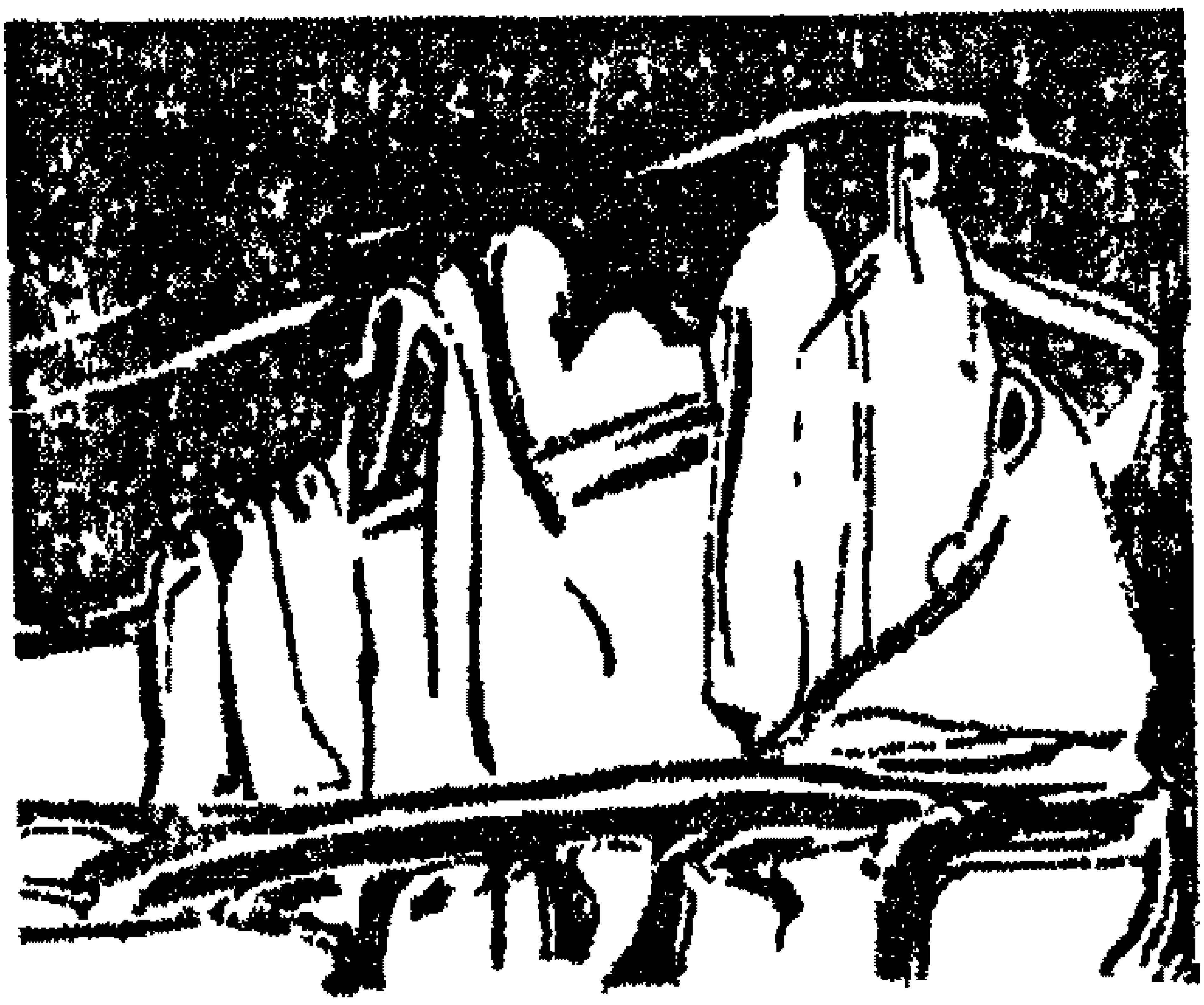

For life goes not backward nor tarries with yesterday.

You are the bows from which your children as living arrows are sent forth.

The Archer sees the mark upon the path of the infinite, and He bends you with His might that His arrows may go swift and far.

Let your bending in the Archer's hand be for gladness;

For even as He loves the arrow that flies, so He loves also the bow that is stable.

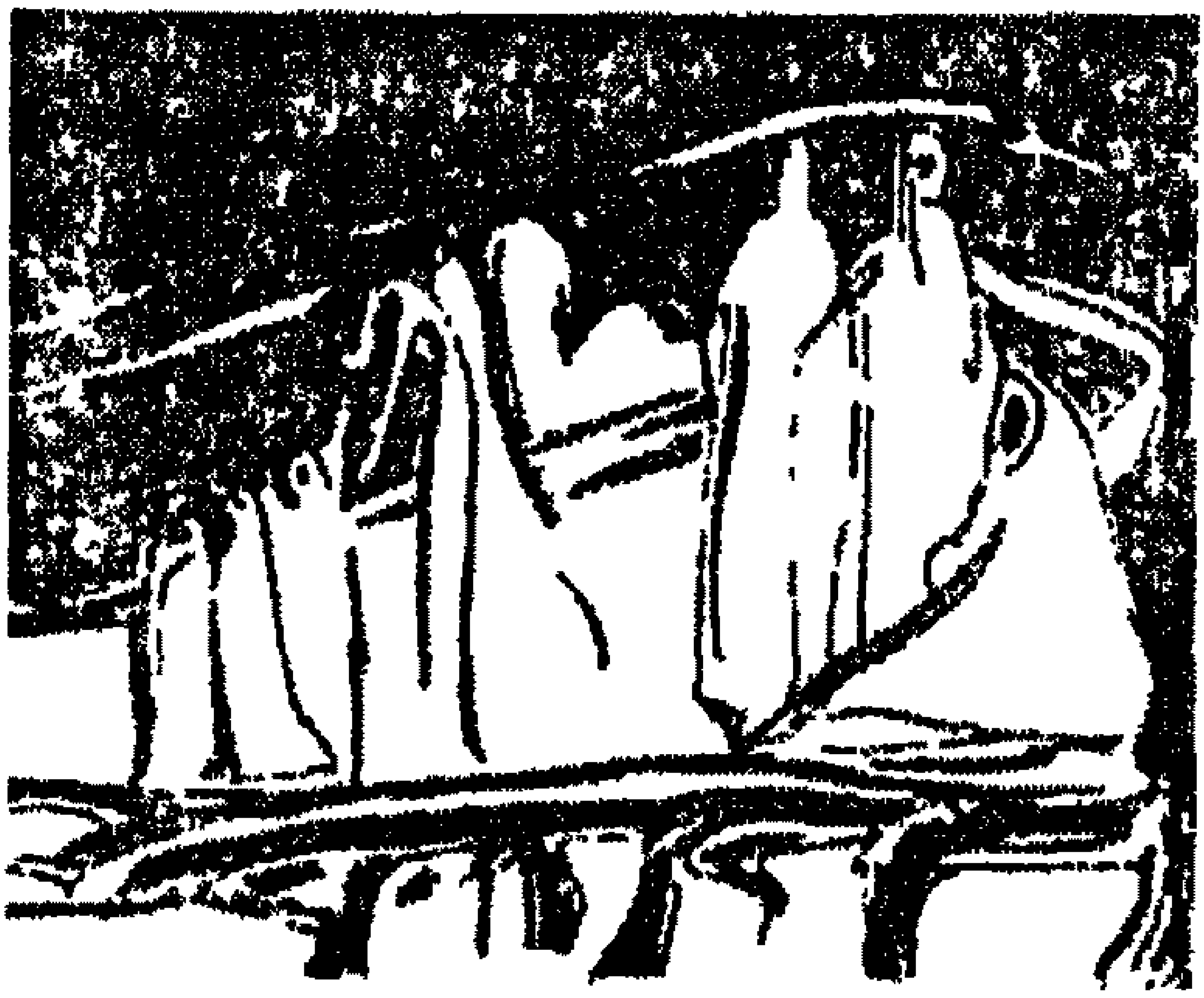

وهنا قال رجل ثَريٌّ: حدِّثنا عن

العطاء

أجاب المصطفى:

إنك لَتُعطي القليل حين تُعطي ممّا تملك،

فإذا أعطيتَ من ذاتك أعطيتَ حقًا.

وهل ما تملكُ سوى أشياءَ ترعاها وتحرسها خَشيةَ أن تحتاج إليها في غدك؟

ذلك الغد، ما تُراه يَدَّخر لكَلْب شديد الحرص يَدفنُ العظامَ في الرمال المهجورة، وهو يتبع الحُجّاج إلى المدينةَ المقَدّسة.

وهل الخوفُ من الحاجة إلا الحاجةُ ذاتها؟

أليست خشيةُ الظمأ، وبئرك مَلأى، هو العطش لا تُروَى له غلَّة؟.

* * *

بعض الناس يُعطي القليل مما عنده من كَثير.

أولئك يُعطون تباهيًا بالعَطاء، فتذهب نيّاتهم المستورة بطيِّبات عَطاياهم.

Then said a rich man,
Speak to us of *Giving*.

And he answered:

You give but little when you give of your possessions.

It is when you give of yourself that you truly give.

For what are your possessions but things you keep and guard for fear you may need them to-morrow?

And to-morrow, what shall to-morrow bring to the over-prudent dog burying bones in the trackless sand as he follows the pilgrims to the holy city?

And what is fear of need but need itself?

Is not dread of thirst when your well is full, the thirst that is unquenchable?

***

There are those who give little of the much which they have, and they give it for recognition and their hidden desire makes their gifts unwholesome.

وبعضهم لا يملك إلا القليل فيَجودُ به كُلّه .

أولئك هم المؤمنون بالحياة وما فيها من خير ، فلا تفرغ خزائنُهم أبدًا .

وبعضهم يعطي فَرِحًا ، وفرحتُه جزاؤه ،

أو يعطي مكابدًا ، وفى مكابدته تطهيرٌ له .

وبعضهم يُعطي ولا يحسُّ مكابدة ، ولا يلتمِسُ فرحًا ، ولا يدري أن العطاء فضيلة .

أولئك يُعطون كأنهم رَيحان الوادى يَبُثُّ عطره في الفضاء .

وعلى فَيْض أمثال هؤلاء تَتَجَلَّى كلمة **الله** ، ومن خلال عيونهم تُشْرِقُ بَسَماتُه على الأرض .

* * *

جميلٌ أن تُعطيَ من يسألك ، وأجملُ منه أن تُعطيَ مَن لا يسألك وقد أدركتَ عَوَزَهُ ؛

فالسَّعْيُ إلى مَنْ يتقبَّل العَطاء هو للجَواد المعطاء متعةٌ تتجاوزُ العطاءَ ذاته .

And there are those who have little and give it all.

These are the believers in life and the bounty of life, and their coffer is never empty.

There are those who give with joy, and that joy is their reward.

And there are those who give with pain, and that pain is their baptism.

And there are those who give and know not pain in giving, nor do they seek joy, nor give with mindfulness of virtue;

They give as in yonder valley the myrtle breathes its fragrance into space.

Through the hands of such as these God speaks, and from behind their eyes He smiles upon the earth.

***

It is well to give when asked, but it is better to give unasked, through understanding;

And to the open-handed the search for one who shall receive is joy greater than giving.

وهل تستطيع حقا أن تقبض يدك على شيء مما تَمْلك؟

لَيَأتينَّ يومٌ كلُّ ما لَكَ فيه سوف يُعطَى؛ فأعطِ الآن يكُن لك مَوْسم العطاء، لا لمن يَرِثُكَ.

* * *

ما أكثرَ ما تقول: «لَتَصْبُوَنَّ نفسي إلى العطاء، ولكن لا أعطي إلا مَنْ يستحقّ».

ليس ذلك قول الأشجار في بُسْتانك، ولا القُطْعانِ في مَرْعاك.

إنها تُعطي لتَحْيا؛ لأن الامتناعَ عن العطاء سبيل الفَناء.

لا رَيْبَ أن من استحقَّ أن ينال أيام عمره ولياليه، لَجديرٌ بأن ينال سِواها منك،

وأنَّ من استحقَّ أن يَنْهَلَ من محيط الحياة، لجدير بأن يملأ كأسه من جَدْوِلكَ الصغير.

وأي جزاء يَعْلو على جزاء مَنْ يتقبَّل العَطاء في شَجاعة وثِقَة، بل وفي محبّة وسماحة؟

ومَنْ تكون أنت حتى يكشف النّاسُ لك عن خَبيئة

And is there aught you would withhold?

All you have shall some day be given;

Therefore give now, that the season of giving may be yours and not your inheritors.

***

You often say, "I would give, but only to the deserving."

The trees in your orchard say not so, nor the flocks in your pasture.

They give that they may live, for to withhold is to perish.

'Surely he who is worthy to receive his days and his nights is worthy of all else from you.

And he who has deserved to drink from the ocean of life deserves to fill his cup from your little stream.

And what desert greater shall there be, than that which lies in the courage and the confidence, nay the charity, of receiving?

And who are you that men should rend

صدورهم ويُلْقوا عنهم رداءَ الكِبْرياء؛ فترى منهم أقداراً عارية وعِزَّةً مبْذولة؟

فانظر أولاً: أجديرٌ أنت بأن تتزكَّى، وأن تكون للعَطاء أداة؟

فالحقُّ أن الحياة هي التي تُعطي الحياة، ولست أنت، يا مَن تظنُّ أنك مُعْطٍ، سوى شاهدٍ.

* * *

وأنتم يا من تأخذون ـ وكُلُّكم آخذ ـ لا تُسرفوا في الامتنان، وإلا وَضَعْتُم نيراً على كواهِلكُم وكاهل من أعطى.

بل أوْلَى بكم أن تمتطوا عطايا المُحْسن وكأنها أجنحة لتعرجوا معه إلى مَراقي الذُّرى.

ولئن استبدَّ بكم الشُّعور بأن الدَّيْن عليكم فادحٌ، فذلك شَكٌّ في كَرَم مَنْ يُعطي، في حين أنَّ الأرضَ السَّمحاءَ أمه والربَّ أبوه.

* * *

their bosom and unveil their pride, that you may see their worth naked and their pride unabashed?

'See first that you yourself deserve to be a giver, and an instrument of giving.

For in truth it is life that gives unto life - while you, who deem yourself a giver, are but a witness.

***

And you receivers - and you are all receivers - assume no weight of gratitude, lest you lay a yoke upon yourself and upon him who gives.

Rather rise together with the giver on his gifts as on wings;

For to be overmindful of your debt is to doubt his generosity who has the freehearted earth for mother, and God for father.

***

وهنا انْبَرى شيخٌ صاحب نُزُل فقال: حدِّثنا عن

المأكل والمشرب

قال المصطفى:

ليتكم تستطيعون أن تحيَوْا على عَبير الأرض، مثلما يحيا النَّباتُ المُتمدّد[1] على الضَّوء.

فإذا لم يكُ بُدٌّ من أن تقتلوا لتسدُّوا جوعكم، وأن تسلبوا لبنَ الأمِّ من رضيعها لتُطفئوا ظمأكم، فلتجعلوا ما تعملون إذًا طقسًا من طقوس العبادة.

ولتكن مائدتُكم مذبحًا يُضَحّى عليه كلُّ ما هو نقيّ بريء وافدٌ من السَّهْل والغاب، في سبيل ما هو في الإنسان أطْهَرَ وأبْرأ.

* * *

وحين تَنْحرُ ذبيحَتَك ناجِها في سَريرتك قائلاً:

«إن القُدرَةَ التي تذبحُك هي نفسُها تذبحني؛ وأنا مثْلُك مصيري الفَناء.

فإن النّاموس الذي أسلَمَك إلى يدي سوف يُسلمني إلى يدٍ أشدّ بأسًا.

---

(١) هو النبات الهوائي (غير الطفيلي) المتعلّق بالأشجار والمُغتذي بالضوء.

Then an old man, a keeper of an inn, said,

Speak to us of *Eating and Drinking.*

And he said:

Would that you could live on the fragrance of the earth, and like an air plant be sustained by the light.

But since you must kill to eat, and rob the newly born of its mother's milk to quench your thirst, let it then be an act of worship,

And let your board stand an altar on which the pure and the innocent of forest and plain are sacrificed for that which is purer and still more innocent in man.

***

When you kill a beast say to him in your heart:

"By the same power that slays you, I too am slain; and I too shall be consumed.

"For the law that delivered you into my hand shall deliver me into a mightier hand.

وما دمي ودمك إلا العصير يَغْذو شجرة الخُلْد».

* * *

وحين تقضم التّفّاحة بين أسنانك، ناجِها قائلاً:
«لسوف تحيا بذورُك في جسدي،

وتُزهر براعِمُ غَدك في قلبي،

ويُصبح عبيرك أنفاسي؛
ومعًا نبتهجُ على مرّ الفصول».

* * *

وفي الخريف متى أخذتَ في جَمْعِ العِنَب من كَرْمتك لتُلقي به إلى المِعْصَرَة، ناجِه قائلاً:

«أنا أيضًا كَرْمَةٌ ثِمارها إلى جَنْيٍ مآله المِعْصَرة،

وكالخمرة الجديدة سأُحْفَظُ في قنانيّ الخلود».

وفي الشتاء حين تَرْتَشفُ الخمر، أدِرْ في قلبك لكل كأس أغنية،

"Your blood and my blood is naught but the sap that feeds the tree of heaven."

***

And when you crush an apple with your teeth, say to it in your heart:

"Your seeds shall live in my body,

"And the buds of your to-morrow shall blossom in my heart,

"And your fragrance shall be my breath,

"And together we shall rejoice through all the seasons."

***

And in the autumn, when you gather the grapes of your vineyards for the winepress, say in your heart:

"I too am a vineyard, and my fruit shall be gathered for the winepress.

"And like new wine I shall be kept in eternal vessels."

And in winter, when you draw the wine, let there be in your heart a song for each cup;

واجعل في الأغنيــة ذِكْـرى للخَـريف، وأخــرى للكَرْمَة، وللمِعْصَرة.

* * *

And let there be in the song a remembrance for the autumn days, and for the vineyard, and for the winepress.

***

قال فلاحٌ: حدِّثنا عن

العـــمل

قال المصطفى:

أنت تعمل كي تُلاحِقَ الأرض وتُقارِبَ سِرَّها.

فمن تَوانى صار غريبًا عن مواقيتها، خارجًا عن موكب الحياة، وهو يمضي في جلالٍ وقورٍ وامتثالٍ شامخٍ نحو الخلود.

* * *

أنت - حين تعمل - مِزْمارٌ، تتحوَّلُ هَمَسات الدَّهْرِ في جَوْفِه إلى أنغام.

من منكم يودُّ لو يصبح قَصَبَةً خَرْساء بكماء، على حين تغنّي الكائنات حوله في توحّد وتآلف؟

وما أكثر ما سمعتم أن العمل لَعْنَةٌ على العاملين، وأن الكدَّ عَثْرةُ حَظٍّ.

وعندي أنكم حين تعملون، تُحقِّقون للأرض بعض حُلمها المُترامي الذي كُتِبَ عليكم يومَ وُلد.

Then a ploughman said,

Speak to us of *Work*.

And he answered, saying:

you work that you may keep pace with the earth and the soul of the earth.

For to be idle is to become a stranger unto the seasons, and to step out of life's procession that marches in majesty and proud submission towards the infinite.

***

When you work you are a flute through whose heart the whispering of the hours turns to music.

Which of you would be a reed, dumb and silent, when all else sings together in unison?

Always you have been told that work is a curse and labour a misfortune.

But I say to you that when you work you fulfil a part of earth's furthest dream, assigned to you when that dream was born,

وحين تمضون في العمل تُمارِسون في الحقِّ حبَّ الحياة،

وحبُّ الحياة عن طريق العمل يَتَوَغَّل بكم إلى أعمق أسرار الحياة.

أمّا إذا خلتُم - ساعةَ تضيقون بالحياة فَتَألَمون - أن مولدكم بلاءٌ، وأن تَلْبيَةَ مطالب الجسد لَعْنَةٌ سُطِرَتْ على الجَبين، فإني أقول لكم: هيهات أن يمحوَ ما سُطِّر على الجبين إلا حبّاتُ العَرَق.

* * *

ولقد نُبِّئْتُم أيضًا أن الحياة ظلام، حتى أصبحتم تردِّدون من فرط الإنهاك ما يقوله المُنهكون.

ولَعَمْري إن الحياة ظلامٌ إلاّ إذا صاحبها الحافز،

وكل حافز ضَرير إلاّ إذا اقترن بالمعرفة،

وكل معرفة هَباء، إلاّ إذا رافقها العمل،

وكل عمل خَواء، إلاّ إذا امتزج بالحبِّ؛

And in keeping yourself with labour you are in truth loving life,

And to love life through labour is to be intimate with life's inmost secret.

But if you in your pain call birth an affliction and the support of the flesh a curse written upon your brow, then I answer that naught but the sweat of your brow shall wash away that which is written.

***

You have been told also that life is darkness, and in your weariness you echo what was said by the weary.

And I say that life is indeed darkness save when there is urge,

And all urge is blind save when there is knowledge.

And all knowledge is vain save when there is work,

And all work is empty save when there is love;

فإذا امتزج عملُك بالحب فقد وصلتَ نفسَك بنفسك، وبالناس وبالله.

* * *

وما يكون العمل الممزوج بالحبِّ؟

هو أن تَنْسجَ الثَّوبَ بخيوط مَسْلولةٍ من قلبك، كما لو كان هذا الثوب سيرتديه من تُحِبُّ.

هو أن تبنيِ داراً والمحبّةُ رائدك، كما لو كانت هذه الدّار ستَضمُّ مَنْ تُحبُّ.

هو أن تنثرَ البذورَ في حَنان، وتجمعَ حَصادَك مبتهجًا، كما لو كانت الثّمارُ سيأكلها مَنْ تُحِبُّ.

هو أن تنفَحَ كلَّ ما تصنعه يداك بنَسْمَة من روحك، وأن تُدرك أن كلَّ الراحلين المباركين مُلتفّون حولك يُراقبون.

وماأكثرَ ما سمعتُكم تقولون، وكأن القولَ حديثُ مَنام:

«إن المثّال الذي يُشكِّل الرُّخام، ويُسَوّي الحجَر على صورته لأسمَى شأنًا مِمَّن يحرث الأرض.

And when you work with love you bind yourself to yourself, and to one another, and to God.

***

And what is it to work with love?

It is to weave the cloth with threads drawn from your heart, even as if your beloved were to wear that cloth.

It is to build a house with affection,even as if your beloved were to dwell in that house.

It is to sow seeds with tenderness and reap the harvest with joy, even as if your beloved were to eat the fruit.

It is to charge all things you fashion with a breath of your own spirit,

And to know that all the blessed dead are standing about you and watching.

Often have I heard you say, as if speaking in sleep,

“he who works in marble, and finds the shape of his own soul in the stone, is nobler than he who ploughs the soil.

«وإن الرَّسّام الذي يلتقط ألوان قَوْس قُزَح ويُسوّي منها على لوحته ملامح الإنسان لأعظَم قدرًا ممن يصنعُ النِّعال لأقدامنا».

أمّا أنا فأقولها في كامل يَقَظتي، في رائعة النَّهار:

إنَّ الرِّياح لا تُسرُّ إلى السِّنْديانة الضَّخْمَة بهَمَسات أرقّ من تلك التي تُسِرُّ بها إلى أهْوَن حشائش الأرض.

إنما العظيم مَنْ يَردُّ صوتَ الرّياح أغنية، يَزِيدُها حبُّه عُذوبة.

* * *

العمل حبٌّ تَجسَّمَ للعيون.

فإذا كنت تعمل كارهًا وحَليفُك النُّفورُ لا الحبُّ، فخَيْرٌ لك أن تهجُرَ العمل، فتقعدَ على باب المعبد تتلقّى الصَّدقات ممّن يعملون مبتهجين؛

لأنك إذا خبزت العيش سادرًا[1] فأنت إذًا تهيِّئ خبزًا مُرا، لا يَسدُّ من جوع الإنسان إلاّ بعضه.

وإذا أنت عَصَرْتَ الكَرْمَ مُتَبَرِّمًا، فسوف يَتَقاطَرُ تبرُّمك في الخمر سُما.

---

(١) سادرًا: بغير اهتمام.

"And he who seizes the rainbow to lay it on a cloth in the likeness of man, is more than he who makes the sandals for our feet."

But I say, not in sleep, but in the overwakefulness of noontide, that the wind speaks not more sweetly to the giant oaks than to the least of all the blades of grass;

And he alone is great who turns the voice of the wind into a song made sweeter by his own loving.

***

Work is love made visible.

And if you cannot work with love but only with distaste, it is better that you should leave your work and sit at the gate of the temple and take alms of those who work with joy.

For if you bake bread with indifference, you bake a bitter bread that feeds but half man's hunger.

And if you grudge the crushing of the grapes, your grudge distills a poison in the wine.

وإذا شَدَوْتَ ـ ولو شَدْو الملائكة ـ دون أن تحبَّ ما تَشْدو ، فأنت إذًا تصدُّ صوت النهار وصوت الليل عن آذان البشر ، بما تصبُّه فيها من وَقْرٍ[1] .

* * *

(١) الوقر : الثقل والصمم.

And if you sing though as angels, and love not the singing, you muffle man's ears to the voices of the day and the voices of the night.

***

وهنالك قالت امرأة: حدِّثنا عن

الفرح والحزن

قال المصطفى:

إنما فرحكم حُزْنكُم رُفِعَ عن وَجْهِه القِناع.

وما أكثر ما تمتليء البئر التي تستقون منها ضحكاتكم بفَيْضِ دموعكم.

وكيف يكون الأمر غيرَ ذلك؟

فعلى قدر ما يغوص الحزنُ في أعماقكم يزيد ما تَسْتَوْعِبون من فَرَح.

أليست الكأس التي تحمل خمرْكم هي هي الكأس التي احترقت في أتون الفَخّاريّ؟

وأليست القيثارة التي تَسْكُنُ لها نفوسكم هي هي قطعة الخَشَب التي حَفَرتْها سكّين؟

حين يَسْتَخِفُّك الفرح، ارجع إلى أعماق قلبك، فترى أنك فيَ الحقيقة تفرح بما كان يومًا مَصْدَرَ حزنك.

وحين يَغْمُرك الحزن تأمَّل قلبك من جديد،

Then a woman said,

Speak to us of *joy and sorrow.*

And he answered:

your joy is your sorrow unmasked.

And the selfsame well from which your laughter rises was oftentimes filled with your tears.

And how else can it be?

The deeper that sorrow carves into your being, the more joy you can contain.

Is not the cup that holds your wine the very cup that was burned in the potter's oven?

And is not the lute that soothes your spirit the very wood that was hollowed with knives?

When you are joyous, look deep into your heart and you shall find it is only that which has given you sorrow that is giving you joy.

When you are sorrowful, look again in your heart, and you shall see that in truth you

فسترى أنك في الحقيقة تَبكي مما كان يومًا مصدر بَهْجَتِك .

* * *

يقول بعض الناس : «الفرح أسمى من الحزن» .

ويقول آخرون : «إنما الحزن أسمى» .

ولكني أقول لكم إنهما لا يَنْفصلان .

معًا يُقبلان ، وإذا انفرد أحدُهما بك على المائدة ، فاذكر أن الآخر يَرْقُدُ في فِراشِك .

* * *

ولَعمْري إنكم لمُعلَّقون مثل كِفَّتي الميزان بين أحزانكم وأفراحكم .

ويوم تَفْرَغُ منكم النفوس تَثْبُتُ حالكم ؛ إذ تتساوى الكفّتان .

وحين ترفعك يدُ الوَزّان الأعلى لتَزنَ فيك ما له من ذهب وفضَّة ، فلا مَفَرَّ من أن تَثْقُلَ موازينُ فرحكم وحزنكمَ أو تخفَّ .

* * *

are weeping for that which has been your delight.

***

Some of you say "joy is greater than sorrow," and others say, "Nay, sorrow is the greater."

But I say unto you, they are inseparable.

Together they come, and when one sits alone with you at your board, remember that the other is asleep upon your bed.

***

Verily you are suspended like scales between your sorrow and your joy.

Only when you are empty are you at standstill and balanced.

When the treasure-keeper lifts you to weigh his gold and his silver, needs must your joy or your sorrow rise or fall.

***

وعند ذلك تقدَّم إليه بنّاء، وقال: حدِّثنا عن

البيوت

فقال المصطفى:

لتَبْنِ بخيالك خَميلة في الخلاء، قبل أن تقيم داراً وراء أسوار المدينة؛ فكما تعود إلى دارك مع الغَسَق كل مساء، كذلك الهائِم الطوّاف فيك يثوب من أُفُقِه البعيد وحيداً.

إن بيتك هو جسدك الأكبر،

ينمو في رحاب الشَّمس، ويغفو في هَدْأة الليل، ولا تخلو رَقْدَتُه من الأحلام.

أ فلا يحلمُ بيتُك؟ ومتى حلم، أ فلا يهجر المدينة إلى الخَميلة أو إلى قُنَّة الجبل؟

* * *

ليتني أستطيع أن أجمع بيوتكم كلها في يدي، فأنثرها كما ينثر الزّارع حبَّه بين السَّهل والغاب.

تمنَّيتُ لو أن طُرقاتِكم أودية، ومسالككم مُروج خُضْرٌ، فيسعى كلٌّ منكم بين الكُروم إلى صاحبه، وتعودُوا وقد علِقَ عبيرُ الأرض بثيابكم.

Then a mason came forth and said,

Speak to us of *Houses*.

And he answered and said:

Build of your imaginings a bower in the wilderness ere you build a house within the city walls. For even as you have home-comings in your twilight, so has the wanderer in you, the ever-distant and alone.

Your house is your larger body.

It grows in the sun and sleeps in the stillness of the night; and it is not dreamless.

Does not your house dream? And dreaming, leave the city for grove or hilltop?

***

Would that I could gather your houses into my hand, and like a sower scatter them in forest and meadow.

Would the valleys were your streets, and the green paths your alleys, that you might seek one another through vineyards, and come with the fragrance of the earth in your garments.

ولكن لم يَحِنْ أوان ذلك بعد؛

فقد تملَّك الخوفُ قلوبَ أسلافكم؛ فحَشَروكم حَشْراً . ولَيَبْقَيَنَّ هذا الخوف إلى حين، وإلى حين ستبقى أسوارُ مدينتكم حَوائِلَ بين بيوتكم وحقولكم .

ألا خَبِّرُوني يا أهلَ أورفاليس : أي شيء يَعْمُرُ هذي البيوت؟ وما الذي تحرسونه بأبوابكم الموصَدَة؟

أعندكم الأمان؛ ذلك الحافز الوادع يَنِمّ على قوَّتكم؟

أعندكم الذّكريات؛ تلك الأحناء الواهِجَة التي تُعْقَدُ بين ذُرى الأفكار؟

أم عندكم الجمالُ يسمو بقلوبكم من أفُق الأشياء التي سُوِّيت من خَشَبٍ وحَجَرٍ إلى الجبل المقدَّس؟

حدِّثوني، أتعمُرُ هذي الأشياءُ بيوتكم؟ أم أنكم لا تملكون في رِحابها إلا ترفَ النَّعيم والصَّبوة[1] إليه؟

تلك الصَّبْوَة التي تتسلَّل خفْيَةً إلى بيوتكم، تنزل ضيفًا، ثم تُصبح مُضيفًا، فَسيِّدًا؟

---

(١) الصَّبوة: الوله والحنين.

But these things are not yet to be.

In their fear your forefathers gathered you too near together. And that fear shall endure a little longer. A little longer shall your city walls separate your hearths from your fields.

And tell me, people of Orphalese, what have you in these houses? And what is it you guard with fastened doors?

Have you peace, the quiet urge that reveals your power?

Have you remembrances, the glimmering arches that span the summits of the mind?

Have you beauty, that leads the heart from things fashioned of wood and stone to the holy mountain?

Tell me, have you these in your houses?

Or have you only comfort, and the lust for comfort, that stealthy thing that enters the house a guest, and then becomes a host, and then a master?

ثم تنقلب مروِّضًا يُحرِّك الأنْشوطَة والسَّوط، فيجعل أمانيَّكم العِراضَ ألاعيبَ تحرِّكها يداه.

أجَلْ، وإن لعب بيدٍ ناعِمَة كالحرير، فله قلب من حديد.

يُهَدْهدكم حتى تناموا، وليس له من مأرب إلا أن يقف بجَوار فراشكم، هازئًا بحُرْمَة أجسادكم. ثم يَسْخَر من حواسكُم الرَّشيدة، ويُلقي بها كأنها هَشُّ الأواني بين الصخور الشائكة.

لَعَمْري إن الصَّبْوة إلى النَّعيم تُطفئ جَذوة الرّوح، ثم تسير ساخرة في جِنازتها.

* * *

أمّا أنتم يا أبناء الفَضاء الذين لا تطمئنّون حين تَحلُّ الطُّمأنينة، فإنكم لن تقَعوا في الشَّرك، ولن يُجْدي معكم ترويض.

ولن تكون بيوتكم أبدًا مَرْساةً بل ستبقى سارِيَة،

ولن تكون غِشاء متوهّجا يستر جُرْحًا، بل جَفْنًا يَحْرس العين،

Ay and, it becomes a tamer, and with hook and scourge makes puppets of your larger desires.

Though its hands are silken, its heart is of iron.

It lulls you to sleep only to stand by your bed and jeer at the dignity of the flesh.

It makes mock of your sound senses, and lays them in thistledown like fragile vessels.

Verily the lust for comfort murders the passion of the soul, and then walks grinning in the funeral.

***

But you, children of space, you restless in rest, you shall not be trapped nor tamed.

Your house shall be not an anchor but a mast.

It shall not be a glistening film that covers a wound, but an eyelid that guards the eye.

ولن تطووا أجنحتكم لتمرُّوا من الأبواب، أو تحنوا رؤوسكم خَشيةَ أن تصطدم بالسَّقف، أو تُمسكوا أنفاسكم خَشية أن تتصدَّع الجدْران وتَهْوِي.

لا، لن تقطنوا قبوراً شيَّدها الموتى للأحياء.

ولتَبْقَيَنَّ بيوتكم، على الرغم من جَلالها وبَهائها، أعجزَ من أن تحفظ سِرَّكم أو تأوي أشواقكم؛

فإن غيرَ المحدود فيكم يقطُن «مملكة السَّماء»، بابها ضَباب الصَّباح، ونوافذها أناشيد الليل وسكينته.

* * *

You shall not fold your wings that you may pass through doors, nor bend your heads that they strike not against a ceiling, nor fear to breathe lest walls should crack and fall down.

You shall not dwell in tombs made by the dead for the living.

And though of magnificence and splendour, your house shall not hold your secret nor shelter your longing.

For that which is boundless in you abides in the mansion of the sky,whose door is the morning mist, and whose windows are the songs and the silences of night.

***

وقال النَّسّاج: حدِّثنا عن

الثياب

فأجابه المصطفى:

إن ثيابكم تحجُب من جمالكم الكثير، لكنها لا تُخْفي ما قَبُحَ فيكم.

وإنكم، وإنْ تَنْشدوا في الثياب حُرِّيَّة الخَلوة بأنفسكم، لتجدون فيها رَسَناً وقيْدا.

ليتكم تستطيعون أن تستقبلوا الشَّمس والرّياح بمزيد من جِلْدِكم وقليل من مَلْبَسكم؛

فإن أنفاس الحياة تكْمُنُ في أشعَّة الشَّمس، ويَدُ الحياة تجري مع الرّياح.

* * *

يقول بعضكم: «إن الثّياب التي نَرْتَديها نَسَجَتها ريحُ الشَّمال».

وأنا أقول: أجلْ كانت ريح الشَّمال،

لكنها نسجتها بنوْلٍ من العار، وأوتارٍ من العَضَل الواهن.

And the weaver said,

Speak to us of *Clothes*.

And he answered:

Your clothes conceal much of your beauty, yet they hide not the unbeautiful.

And though you seek in garments the freedom of privacy you may find in them a harness and a chain.

Would that you could meet the sun and the wind with more of your skin and less of your raiment,

For the breath of life is in the sunlight and the hand of life is in the wind.

***

Some of you say, " It is the north wind who has woven the clothes we wear."

And I say, Ay, it was the north wind,

But shame was his loom, and the softening of the sinews was his thread.

وما إن فَرَغَتْ منها حتى انطلقت ضاحكة في الغابة.

فلا تنسَوْا أن الاحتشام درْعٌ يقيكم من نظرات أهل الدَّنَس،

فإذا زال الدَّنس فأي شيء يبقى من الاحتشام، سوى أنه كان قيدًا ومَفْسَدَةً للعقل؟

ولا تَنْسَوْا أن الأرض تَلْتَذُّ بملامسة أقدامكم العارية، وأن الرياح تَتشوّقُ إلى مُداعَبَة شُعوركم المرْسَلَة.

* * *

And when his work was done he laughed in the forest.

Forget not that modesty is for a shield against the eye of the unclean.

And when the unclean shall be no more, what were modesty but a fetter and a fouling of the mind?

And forget not that the earth delights to feel your bare feet and the winds long to play with your hair.

***

وقال تاجر: حدِّثنا عن

البيع والشراء

فقال المصطفى:

إن الأرضَ تؤتيكم ثمارَها، فتكفيكم الحاجة لو عرفتم كيف تملأون منها أكفَّكُم.

فإن أنتم تبادلتم نعَمَها نِلتُم الوفرة والرَّخاء، وطابت بذلك نفوسُكَم،

فإن لم يجر بينكم التَّبادلُ بالحبِّ والعدل الرَّفيق، شَرِهَت فيكم نفوسٌ وجاعَت أخرى.

* * *

وأنتم أيها الكادحون في البحار، وفي الحقول، وفي الكروم، حينَ تَلْقونَ في السّوق النَّسّاجين والخزّافين وتُجّار التَّوابل،

ابتهلوا إلى روح الأرض الوهَّابة أن تحلَّ في وسطكم، وتبارك موازينكم ومعاملاتكم مثْقالاً بمِثْقال.

ولا تسمحوا للمُطَفِّفين أصحاب اليد الشَّحيحة بالمشاركة في مُعامَلاتكم، فيبيعوكم أقوالهم نظير أعمالكم.

And a merchant said,

Speak to us of *buying and selling.*

And he answered and said:

To you the earth yields her fruit, and you shall not want if you but know how to fill your hands.

It is in exchanging the gifts of the earth that you shall find abundance and be satisfied.

Yet unless the exchange be in love and kindly justice, it will but lead some to greed and others to hunger.

***

When in the market-place you toilers of the sea and fields and vineyards meet the weavers and the potters and the gatherers of spices, -

Invoke then the master spirit of the earth, to come into your midst and sanctify the scales and the reckoning that weighs value against value.

And suffer not the barren-handed take part in your transactions, who would sell their words for your labour.

ولْتقولُوا لأمثال هؤلاء :

«تعالوا معنا إلى الحقول، أو امضوا مع رفاقنا إلى عُرْض البحر واطرحوا شِباككم؛

فإن سخاء الأرض والبحر سيَفيضُ عليكم مثلما يفيض علينا».

* * *

فإذا وافاكم هنالك المغنّون والرّاقصون والزّامِرون فاقتَنوا أيضًا مما يُتْحِفُون؛

لإنهم مثْلكم يجمعون ثمارًا وبخورًا، ولئن كان ما يحملونه إليكم نَسيجَ أحلام، فلَهُو الكِساء لأرواحكم والغذاء.

* * *

وقبل أن تغادروا السّوق، احرصوا على ألا يتركها أحد صِفرَ اليَدَيْن؛

فإن روح الأرض المُهْيمنة لن تتوسَّد جناحَ الريح وادعةً حتى ينالَ أدناكم كفايته.

* * *

To such men you should say:

“Come with us to the field, or go with our brothers to the sea and cast your net;

“For the land and the sea shall be bountiful to you even as to us.”

***

And if there come the singers and the dancers and the flute-players, - buy of their gifts also.

For they too are gatherers of fruit and frankincense, and that which they bring, though fashioned of dreams, is raiment and food for your soul.

***

And before you leave the market-place, see that no one has gone his way with empty hands.

For the master spirit of the earth shall not sleep peacefully upon the wind till the needs of the least of you are satisfied.

***

وانبرى عندئذ قاضٍ من قُضاة المدينة، وقال حدِّثنا عن

الجريمة والعقاب

فقال المصطفى:

حين تنطلق أرواحكم هائِمة فوق الرِّياح،

هنالك تَخلون بأنفسكم ولا رَقيب، فتُخطئون في حَقِّ الناس ومن ثم في حَقِّ أنفسكم.

ولن تُكَفِّروا عن هذه الخطيئة إلاّ إذا طرقتم باب أهل النَّعيم المباركين، وصبرتم إلى حين لا يحْفِلُ بكم أحد.

* * *

إن ذاتكم النّورانيّة لكالبحر المحيط؛

إلى الأبد تظلُّ نقيَّة، مُبَرَّأةً من الدَّنس.

وكالأثير لاتَرْفع إلاّ ذا الجُناح.

بل هي كالشَّمس، ذاتكم النّورانيَّة؛

لا تعرف مسارِبَ الخُلْد[1]، ولا تسعى إلى جحور الأفاعي،

---

(١) الخُلد: الفأرة العمياء.

Then one of the judges of the city stood forth and said,

Speak to us of *Crime and Punishment*,

And he answered, saying:

It is when your spirit goes wandering upon the wind,

That you, alone and unguarded, commit a wrong unto others and therefore unto yourself.

And for that wrong committed must you knock and wait a while unheeded at the gate of the blessed.

***

Like the ocean is your god-self;

it remains for ever undefiled.

And like the ether it lifts but the winged.

Even like the sun is your god-self;

It knows not the ways of the mole nor seeks it the holes of the serpent.

ولكن هذه الذاتَ النّورانيَّة لا تقيمُ وحدها في كيانكم.

فَقَدْرٌ كبيرٌ فيكم لا يزال إنسيا، وقَدْرٌ كبير لم يُصبح بعد إنسيا،

إنما هو مَسْخٌ لا شكْلَ له، يسير غافيًا في الغمام، باحثًا عن يقظة نفسه.

ولأحَدِّثَنّكم عن الإنْسِيِّ فيكم:

إنه هو وحده ـ لا ذاتكم النّورانيَّة، ولا المسخُ الهائمُ في الغَمام ـ يعرف الجريمة وعقابها.

* * *

ما أكثر ما سمعتكم تتحدّثون عمّن أذْنَبَ من بينكم وكأنه ليس منكم، بل غريب عنكم، دخيل على دُنياكم.

أمّا أنا فأقول لكم إن التَّقيَّ و الصّالح لا يمكنه أن يَتسامى على أرفع ما يكونُ في نفس كلٍّ منكم،

كذلك الفاسق والمتخاذل، لا يمكنه أن يهبط دون ما هو فيكم أيضًا.

وكما أن ورقة الشجرة لا تَصْفَرُّ إلا بعلْم كامِنٍ من الشّجرة كلِّها،

But your god-self dwells not alone in your being.

Much in you is still man, and much in you is not yet man,

But a shapeless pigmy that walks asleep in the mist searching for its own awakening.

And of the man in you would I now speak.

For it is he and not your god-self nor the pigmy in the mist that knows crime and the punishment of crime.

***

Oftentimes have I heard you speak of one who commits a wrong as though he were not one of you, but a stranger unto you and an intruder upon your world.

But I say that even as the holy and the righteous cannot rise beyond the highest which is in each one of you,

So the wicked and the weak cannot fall lower than the lowest which is in you also.

And as a single leaf turns not yellow but with the silent knowledge of the whole tree,

كذلك الآثم لا يأتي الخطيئة إلا بإرادة مُسْتَتِرة منكم جميعًا.

كأنكم معا تسيرون في موكب، تنشدون ذاتكم النورانيَّة؛

ذلك أنكم السَّبيل، وأنتم أيضًا سالكوه.

ولئن سقط أحدكم، سقط من أجل مَن يسيرون خلفه، فيكونُ نذيرًا لهم يُجنِّبُهم حجر العَثْرَة.

أجَلْ، إنه ليسقط أيضًا من أجل من تقدَّموه، أولئك الذين لم يطرحوا حجر العثرة، وإن كانوا أشدَّ منه سرعة وأثبتَ قَدَمًا.

* * *

وأقول لكم أيضًا، وإن بدت كلماتي ثقيلة على قلوبكم:

إن القتيل ليس بريئًا من جَريرة مقتله،

والمسروق لا يَسْلَمُ من اللَّوْم على ما سُرِق منه.

والصّالح لا يخلو من الذَّنب على ما أتاه الأشرار، وطاهر اليَد لا ينجو من رجس الأثيم.

So the wrong-doer cannot do wrong without the hidden will of you all.

Like a procession you walk together towards your god-self.

You are the way and the wayfarers.

And when one of you falls down he falls for those behind him, a caution against the stumbling stone.

Ay, and he falls for those ahead of him, who, though faster and surer of foot, yet removed not the stumbling stone.

***

And this also, though the word lie heavy upon your hearts:

The murdered is not unaccountable for his own murder,

And the robbed is not blameless in being robbed.

The righteous is not innocent of the deeds of the wicked,

And the white-handed is not clean in the doings of the felon.

أجل، كثيراً ما يكون الجاني ضحيَّة المجني عليه.

وما أكثر ما يحملُ المُدانُ أوزار من بَرِئ من الذَّنب واللَّوْم.

فإنك لا تستطيع أن تُفرِّقَ بين العادل والظالم، ولا بين الخيِّر والشرِّير؛

يقفان معًا في وجه الشمس، كما يتشابك الخيط الأسود والخيط الأبيض لُحْمَةً وسدًى.

فإذا انقطع الخيطُ الأسود اختبر النسّاج المنسوجَ كُلَّه، واختبر أيضًا مجرى النَّوْل.

* * *

وإنْ أحدُكم ساق إلى ساحة القضاء زوجةً خائنة،

فليضع قلبَ زوجها أيضًا في الميزان، ولْيَسْبُرْ روحَه بالمقاييس.

ومن أراد منكم أن يَجْلِدَ الجاني فليمتحن سَريرة المجني عليه.

Yea, the guilty is oftentimes the victim of the injured.

And still more often the condemned is the burden bearer for the guiltless and unblamed.

You cannot separate the just from the unjust and the good from the wicked;

For they stand together before the face of the sun even as the black thread and the white are woven together.

And when the black thread and the white are woven together.

And when the black thread breaks, the weaver shall look into the whole cloth, and he shall examine the loom also.

***

If any of you would bring to judgment the unfaithful wife,

Let him also weigh the heart of her husband in scales, and measure his soul with measurements.

And let him who would lash the offender look unto the spirit of the offended.

وإذا شاء أحدُكم أن يُنزل العقاب باسم الفضيلة،
ويهوي بالفأس على شجرة الشرّ، فليتأمل جذورها؛

ولسوف يرى جذور الخير والشرِّ، والمُثْمِر
والمُجْدِب، متواشجةً في قلب الأرض السّاكن.

وأنتم أيها القضاة، يا من يَنْشُدون العَدالة،
أيَّ حُكمٍ تُصدرون على من بَرِئ جسدُه وأثِمَتْ
سَريرته؟

وأي قصاص هذا الذي تُنزلونه بمن ذَبَحَ جسداً،
وهو نفسه ذبيح السَّريرة؟

وكيف تحاكمون من تَتَّسمُ فعالُه بالخَديعة
والعُدْوان، وهو نفسه قد حلَّ به ظلم وانتُهِكَت عنده
حُرُمات؟

* * *

وكيف تُعاقبون مَنْ فاقَ تأنيبُ ضميرهم ما قدّمت
أيديهم من سوء؟

أليس تأنيب الضّمير هو العدالة يقيمها هذا القانون
نفسه الذي يطيب لكم أن تكونوا من سَدَنَته؟.

And if any of you would punish in the name of righteousness and lay the axe unto the evil tree, let him see to its roots;

And verily he will find the roots of the good and the bad, the fruitful and the fruitless, all entwined together in the silent heart of the earth.

And you judges who would be just,

What judgment pronounce you upon him who though honest in the flesh yet is a thief in spirit?

What penalty lay you upon him who slays in the flesh yet is himself slain in the spirit?

And how prosecute you him who in action is a deceiver and an oppressor,

Yet who also is aggrieved and outraged?

***

And how shall you punish those whose remorse is already greater than their misdeeds?

Is not remorse the justice which is administered by that very law which you would fain serve?

على أنكم لا تستطيعون أن تفرضوا صَحْوة الضمير على البريء، ولا أن تَنْزِعوه من قلب المُذْنِب.

بلا استئذان يهتف بالليل، فيوقظ الخَلق ليتفحَّصوا طَوَاياهم.

وأنتم يا من تتحرَّوْن العدالة، كيف يتأتّى لكم ذلك، ما لم تتدبَّروا الأفعال كلها في وضَح النّور؟

هنالك فحَسْب تتبيَّنون أن الصّالح والطّالح ليسا إلا شخصًا واحدًا يقفُ في السَّحَر بين ليلٍ من ذاته الممسوخة ونهار من ذاتِه النورانيَّة،

وأن حَجَر الزّاوية في المعبد ليس أسمى من أدْنى حجر في الأساس.

* * *

Yet you cannot lay remorse upon the innocent nor lift it from the heart of the guilty.

Unbidden shall it call in the night, that men may wake and gaze upon themselves.

And you who would understand justice, how shall you unless you look upon all deeds in the fullness of light?

Only then shall you know that the erect and the fallen are but one man standing in twilight between the night of his pigmyself and the day of his god-self,

And that the corner-stone of the temple is not higher than the lowest stone in its foundation.

***

وهنا قال له مُحامٍ: وما الرأي أيها المعلم في

قوانيننا

فقال المصطفى:

إنكم لتَبْتَهجون حين تَسُنُّون القوانين،

ولكنْ يزيدُ ابتهاجكم حين تخرجون عليها.

كالصِّبْيَة يلعبون على شاطئ المحيط، فيقيمون في مُثابَرة من الرمال بُروجًا، ثم يقوِّضون أركانها ضاحكين.

ولكنكم حين تُقيمونها يأتي المحيط بمزيد من الرِّمال إلى الشاطئ؛

وإذ تهدمونها يُشارككم المحيطُ ضحكاتكم.

ولَعَمْري إن المحيط يُشارك البريء ضحكاته أبدًا.

* * *

ولكن ما يكون شأن أولئك الذين لا يرَون الحياة محيطًا، ولا القوانين التي وضعها البشر بروجًا من رمال؟

بل يرون أن الحياة صخرة، والقانون إزميلٌ يسوّون به الصخرة تمثالا على صورتهم.

Then a lawyer said,

But what of our *laws*, master?

And he answered:

You delight in laying down laws,

Yet you delight more in breaking them.

Like children playing by the ocean who build sand-towers with constancy and then destroy them with laughter.

But while you build your sand-towers the ocean brings more sand to the shore,

And when you destroy them the ocean laughs with you.

Verily the ocean laughs always with the innocent.

***

But what of those to whom life is not an ocean, and man-made laws are not sand-towers,

But to whom life is a rock, and the law a chisel with which they would carve it in their own likeness?

وهنا قال له مُحامٍ: وما الرأي أيها المعلم في

قوانيننا

فقال المصطفى:

إنكم لتَبْتَهجون حين تَسُنُّون القوانين،

ولكنْ يزيدُ ابتهاجكم حين تخرجون عليها.

كالصِّبْيَة يلعبون على شاطئ المحيط، فيقيمون في مُثابَرة من الرمال بُروجًا، ثم يقوِّضون أركانها ضاحكين.

ولكنكم حين تُقيمونها يأتي المحيط بمزيد من الرِّمال إلى الشاطئ؛

وإذ تهدمونها يُشارككم المحيطُ ضحكاتكم.

ولَعَمْري إن المحيط يُشارك البريء ضحكاته أبدًا.

* * *

ولكن ما يكون شأن أولئك الذين لا يرَون الحياة محيطًا، ولا القوانين التي وضعها البشر بروجًا من رمال؟

بل يرون أن الحياة صخرة، والقانون إزميلٌ يسوّون به الصخرة تمثالا على صورتهم.

Then a lawyer said,

But what of our *laws*, master?

And he answered:

You delight in laying down laws,

Yet you delight more in breaking them.

Like children playing by the ocean who build sand-towers with constancy and then destroy them with laughter.

But while you build your sand-towers the ocean brings more sand to the shore,

And when you destroy them the ocean laughs with you.

Verily the ocean laughs always with the innocent.

***

But what of those to whom life is not an ocean, and man-made laws are not sand-towers,

But to whom life is a rock, and the law a chisel with which they would carve it in their own likeness?

وما يكون شأنُ المُقْعَد وهو على الراقصين حاقد،

وشأن الثَّور يعشق نيرَه، ويخال ظَبي الغاب ووَعْلها في تيهٍ وشُرود؟

وشأن الأفعى شاخَت وعجزت عن تغيير جِلْدَها؛ فرَمَت كل مَنْ عداها بالعُرْي وخَلْع الحياء؟

وما يكون شأن مَنْ يأتي إلى وَليمة عُرْس مُبكِّرًا، حتى إذا تَخمَ مضى قائلاً إن جميع الولائم انتهاكٌ للشرائع، وإنَّ كل مَنْ يُشارك فيها آثمٌ؟

* * *

ماذا أقول في هؤلاء، سوى أنهم واقفون كغيرهم في وضَح النهار، لكنهم ولّوا ظهورهم للشمس؟

لا يَروْن إلا ظلالهم، وما ظلالُهم إلاّ شرائعُهم.

وهيهات أن يروا في الشمس إلا مصدراً للظلال.

وهل يكون الاعتراف بالقوانين عندهم إلا الانحناء لها وترسُّم ظلالها على الأرض؟

What of the cripple who hates dancers?

What of the ox who loves his yoke and deems the elk and deer of the forest stray and vagrant things?

What of the old serpent who cannot shed his skin and calls all others naked and shameless?

And of him who comes early to the wedding-feast, and when over-fed and tired goes his way saying that all feasts are violation and all feasters lawbreakers?

***

What shall I say of these save that they too stand in the sunlight, but with their backs to the sun?

They see only their shadows, and their shadows are their laws.

And what is the sun to them but a caster of shadows?

And what is it to acknowledge the laws but to stoop down and trace their shadows upon the earth?

أما أنتم يا مَنْ تواجهون الشمس في مَسيرتكم، فهيْهات أن تُقَيِّدكم ظلالٌ رُسمت على الأرض.

وأنتم يا مَنْ ترحلون مع الرِّياح، هيهات أن تَهْدي خُطاكم «دَوّارةُ» الريح.

ولن يقيِّدكم ناموسٌ صاغه البَشَر ليغلَّ البَشَر، إذا حطَّمْتُم نيْركم، ولكن ليس أمام باب سجن سواكم.

وأيّ ناموس تخشون إذا ما رقصتُم، ولكن دون أن تتعثَّروا بأغلال سواكم.

ومن ذا الذي يسوقُكم إلى ساحة القضاء إذا خلَعْتُم ثيابكم، ولم تُلقوا بها في طريق سواكم؟

* * *

يا أبناء أورفاليس، إنكم لتستطيعون أن تكتموا صوت الطُّبول وترخُوا أوتار القيثار، ولكن مَنْ منكم له أن يأمر البلبل أن يكفَّ عن التَّغريد؟

* * *

But you who walk facing the sun, what images drawn on the earth can hold you?

You who travel with the wind, what weathervane shall direct your course?

What man's law shall bind you if you break your yoke but upon no man's prison door?

What laws shall you fear if you dance but stumble against no man's iron chains?

And who is he that shall bring you to judgment if you tear off your garment yet leave it in no man's path?

***

People of Orphalese, you can muffle the drum, and you can loosen the strings of the lyre, but who shall command the skylark not to sing?

***

وقال خطيب: حدِّثنا عن

الحرية

فقال المصطفى:

لقد رأيتكم تَخرّون سُجَّدًا، وتُجلُّون حريَّتكم عند أبواب المدينة، وفي رُكن المصْطَلَى منَ بيوتكم،

كشأن العبيد، يُذلّون أنفسهم أمام الطّاغية، ويُسبِّحون بحمده، مع أنه جَلاّدُهم.

أجلْ، لقد رأيتُ في ساحة المعبد وفي ظلِّ القلعة أشدَّكُم حماسًا تَغُلُّهم الحرّيةُ نيْرًا في أعناقهم وقيْدًا في الرُّسْغيْن.

وأخذ قلبي يَقْطُرُ دمًا بين جَوانحي، لأنكم لن تكونوا أحرارًا إلاّ إذا أضحت رغبتُكم في الحرّية عنانًا يكبَحُ جماحكم، وإلاّ أن تكفُّوا الحديث عنها هدفًا تَسْعوْن إليه وإنجازًا تحقّقون.

ولن تبلغوها وأيّامُكم فراغ بلا هَمٍّ تحملون، ولياليكم خواء بلا حاجة تنشدون أو أسًى تكابدون.

And an orator said,

Speak to us of *freedom*.

And he answered:

At the city gate and by your fireside I have seen you prostrate yourself and worship your own freedom,

Even as slaves humble themselves before a tyrant and praise him though he slays them.

Ay, in the grove of the temple and in the shadow of the citadel I have seen the freest among you wear their freedom as a yoke and a handcuff.

And my heart bled within me; for you can only be free when even the desire of seeking freedom becomes a harness to you, and when you cease to speak of freedom as a goal and a fulfilment.

You shall be free indeed when your days are not without a care nor your nights without a want and a grief,

وإنكم لبالغوها حقًا إذا ما أحدقَتْ بكم النوازل والهموم فسَمَوْتم عليها، نافضين لها، منطلقين من قيودها.

* * *

وهيهات أن تَسموا فوق هذه الأيام وهاتيكَ الليالي، إلاّ إذا حطّمتم الأغلال التي وُلِدَتْ مع فَجْرِ يقظتكم، وكبّلتم بها شمسَ حياتكم.

والحقُّ أن ما تُسَمّونه الحريّة لَهو أشدُّ ما تَرْسُفون فيه من هذه الأغلال، وإن كانت حَلَقاتُها تَلْمَعُ في الشمس فيخطف بريقُها أبصاركم.

* * *

وهل هذا الغُلُّ الشديد إلاّ بضْعَة من نفسك؛ تريد أن ترفعه عن كاهلك حتى تصبح حُرا؟

فإذا كان قانونًا جائرًا تودُّ أن تُبطله، فإنك أنت الذي سطّرته بيدك على جبينك.

وهيهات أن تمحوه بأن تحرقَ كتب القوانين التي سطّرتها يداك، ولا بأن تغسل جِباهَ القُضاة من حولك، ولو غَمَرْتهم بمياه البحر.

But rather when these things girdle your life and yet you rise above them naked and unbound.

***

And how shall you rise beyond your days and nights unless you break the chains which you at the dawn of your understanding have fastened around your noon hour?

In truth that which you call freedom is the strongest of these chains, though its links glitter in the sun and dazzle your eyes.

***

And what is it but fragments of your own self you would discard that you may become free?

If it is an unjust law you would abolish, that law was written with your own hand upon your own forehead.

You cannot erase it by burning your law books nor by washing the foreheads of your judges, though you pour the sea upon them.

وإذا كانَ طاغيةً تريد أن تَثُلَّ عرشه، فاستوثِق أوَّلاً أنْ قد تحطّم العَرْشُ الذي أقمته له في نفسك؛

فهل لطاغيةٍ أن يَحكُمَ الأحرار والأعزَّة إلاّ إذا شابَ حريّتَهم الاستبدادُ، وخالط عزَّتَهم العَارُ؟

وإذا كانَ هَمًّا تودّ أن تَتخلَّصَ منه، فإنك أنت الذي اخترته لنفسك، ولم يفرضه عليك أحد.

وإذا كانَ خَوْفًا تودُّ أن تُبدِّده، فإنه يَتَربَّعُ في قلبك أنت، وليس زِمامُه في يد من تخاف.

* * *

ولَعَمْري إن الأمور جميعًا، مَرْغوبةً أو مَرهوبةً، مَمقوتةً أو محبوبةً، منشودة أو ممجوجة ـ تتحرَّك كلها في أعماق وجودك، تكاد تَتَعانَقُ أبدًا.

أجلْ إنها تتحرَّك في طَوايا نفسك، كما يتحرَّك الضّوءُ وظلُّه، زوجيْن متلازِمَيْن.

وعندما يخبو الظلُّ ويتلاشى، فإن الضوءَ المُتلبِّث يُصبِح ظِلاًّ لضوءٍ جديد.

And if it is a despot you would dethrone, see first that his throne erected within you is destroyed.

For how can a tyrant rule the free and the proud, but for a tyranny in their own freedom and a shame in their own pride?

And if it is a care you would cast off, that care has been chosen by you rather than imposed upon you.

And if it is a fear you would dispel, the seat of that fear is in your heart and not in the hand of the feared.

***

Verily all things move within your being in constant half embrace, the desired and the dreaded, the repugnant and the cherished, the persued and that which you would escape.

These things move within you as lights and shadows in pairs that cling.

And when the shadow fades and is no more, the light that lingers becomes a shadow to another light.

وهكذا تكون حريتكم، ما إن تتخلص من أغلالها حتى تَغْدو هي نفسها قيداً لحرية أعظم.

* * *

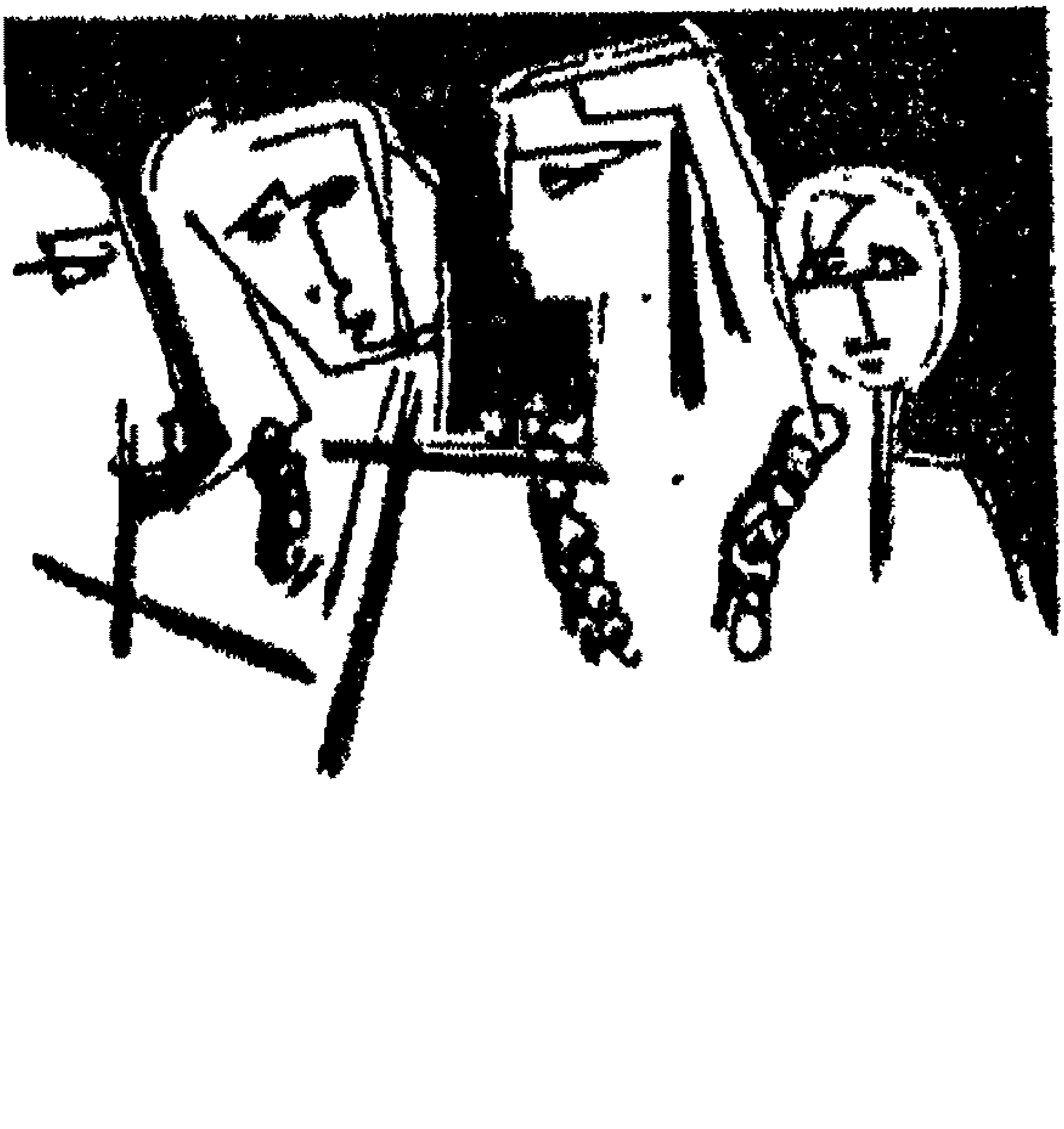

And thus your freedom when it loses its fetters becomes itself the fetter of a greater freedom.

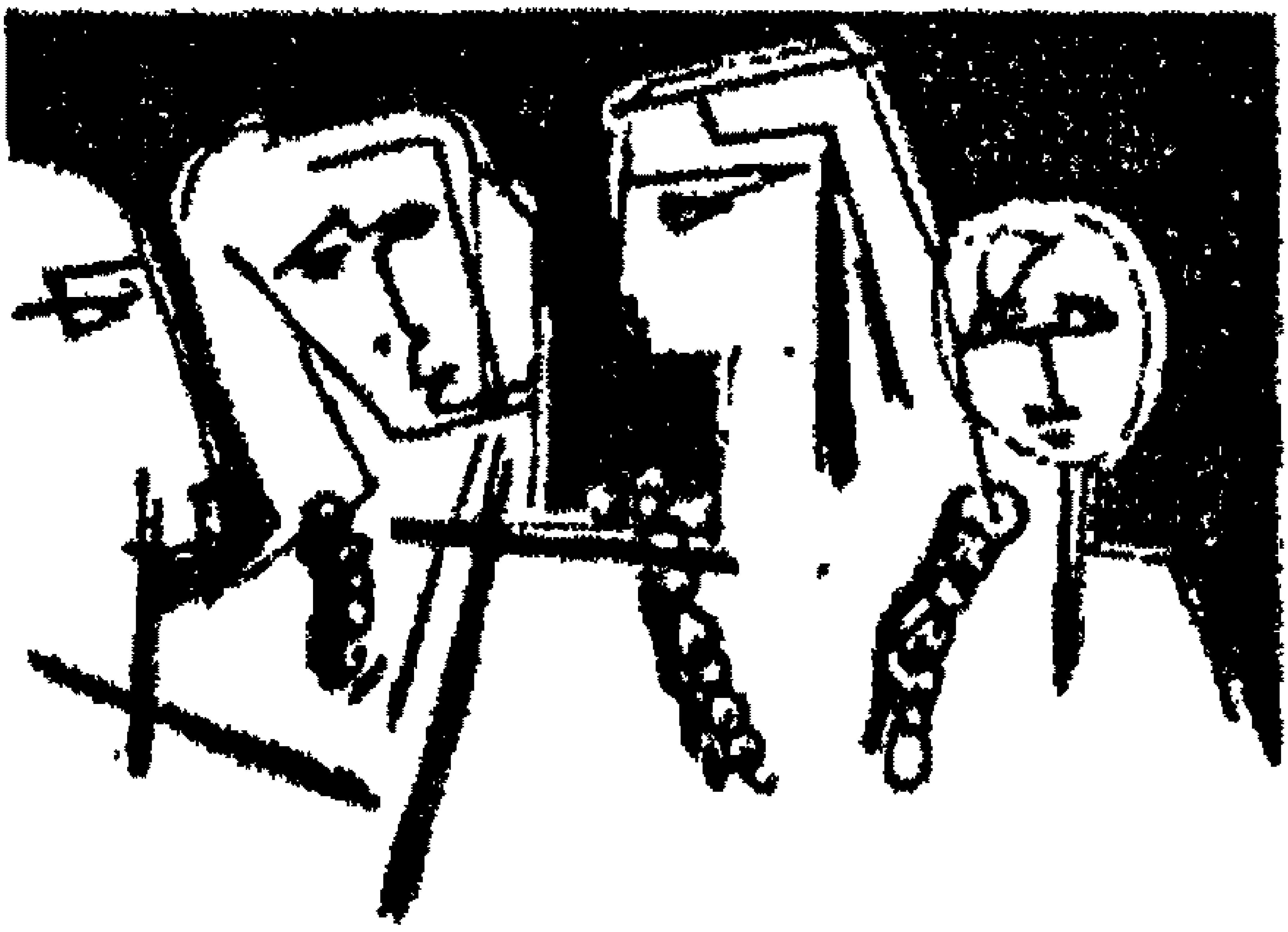

وعادت الكاهنة إلى الكلام قائلة: حدِّثنا عن

العقل والعاطفة

فقال المصطفى:

ما أكثر ما تكون نفوسكم ساحةَ قتال، تَشنُّه عقولكم ونُهاكم[1] على عواطفكم وشهواتكم.

وإني لأتمنّى أن أحلَّ في نفوسكم صانعَ سَلام، فأشيعَ الوحْدَةَ بين عناصركم المتنافِرَة، وأردَّ تنافسَها إلى وِئام وتناغم.

لكن هيهات أن يُتاح لي ذلك إلاّ إذا كنتم أنتم أنفسكم صُنَّاع سلام، بل عشّاقًا لجملة عناصركم.

* * *

إن عقولكم وعواطفكم هي الدَّفَّة والشِّراع لأرواحكم السارِحَةَ في البحار،

فإذا تحطَّمت الدَّفة أو تمزّق الشِّراع، تقاذَفَتْها الأمواجُ فضلّت، أو توقَّفت بلا حَراك وسط الخِضَمّ.

(١) النُّهَى جمع نهية، ومعناها العقل وسمّي بها لأنه ينهى عن القبيح وعن كل ما ينافي العقل.

And the priestess spoke again and said:

Speak to us of *reason and passion.*

And he answered, saying:

Your soul is oftentimes a battlefield, upon which your reason and your judgment wage war against your passion and your appetite.

Would that I could be the peacemaker in your soul, that I might turn the discord and the rivalry of your elements into oneness and melody.

But how shall I, unless you yourselves be also the peacemakers, nay, the lovers of all your elements?

***

Your reason and your passion are the rudder and the sails of your seafaring soul.

If either your sails or your rudder be broken, you can but toss and drift, or else be held at a standstill in mid-seas.

فالعقل إذا سيطر وَحْدَهُ باتَ قُوَّةً تقيِّدكم؛ والعاطفة إذا تُركت وشأنها دون وازعٍ غَدَتْ لهيبًا يتلظَّى حتى تخمد؛

فدعِ روحَك تحلِّق بعقلك إلى ذُرى العاطفة، حتى تَصْدحَ بالنَّغم.

ودعها تَهدي عاطفتك بالحجا[1]؛ فالعاطفة تَحْيا كل يوم بالبعث المتجدّد، كالعَنقاء[2] تحرق نفسها ثم تنهض من بين الرّماد.

وليتكم تنظرون إلى نُهاكم وشَهواتكم نظرتكم إلى ضيفَيْن عزيزين حلاّ بداركم.

يقينًا إنكم لن تُؤثروا أحدَهما على الآخر؛ فإنكم إن أسرَفْتم في العناية بأحدهما فَقَدْتُم حُبَّ الاثنيْن وثقتَهما.

* * *

(١) الحجا: العقل.

(٢) يشير إلى أسطورة قديمة تقول إن العنقاء لما كبرت وأسنَّت صنعت لها عشّا وضعت فيه لقاحها وغطته بالأغصان الرّخصة، ثم أشعلت فيه النار وماتت محترقة فخرج من بين الرماد طائر جديد يحمل صفات الطائر الأول.

For reason, ruling alone, is a force confining; and passion, unattended, is a flame that burns to its own destruction.

Therefore let your soul exalt your reason to the height of passion, that it may sing;

And let it direct your passion with reason, that your passion may live through its own daily resurrection, and like the phoenix rise above its own ashes.

I would have you consider your judgment and your appetite even as you would two loved guests in your house.

Surely you would not honour one guest above the other; for he who is more mindful of one looses the love and the faith of both.

***

وإذا جلستَ فوق التِّلال في الظِّلِّ الرَّطيب لأشجار الحوْر البيض، وشاركت ما تَرامى من الحقول والمروج هَدْأَتَها وَصَحْوَها، فدع قلبك يُردّد في سكون: «إنّ روح الله تسكن في العقل».

وإذا هبَّت العاصفَةُ، وهزَّت الرّيحُ العاتيَةُ أرجاءَ الغابة، وأفصَحَ الرَّعْدُ والبَرْقُ عن جلال السّماء، فدعْ قلبك يُردّد في خَشْيَة: «إن روح الله تموج في العاطفة».

وما دُمْتَ نَفَسًا يتردّد في ملكوت الله، وورقةً تضطربُ في غابته، فلتسكنْ أنت أيضا في العقل، ولتموج في العاطفة.

Among the hills,when you sit in the cool shade of the white poplars, sharing the peace and serenity of distant fields and meadows - then let tour heart say in silence, "God rests in reason."

And when the storm comes, and the mighty wind shakes the forest, and thunder and lightning proclaim the majesty of the sky, - then let tour heart say in awe, "God moves in passion."

And since you are a breath in God's sphere, and a leaf in God's forest, you too should rest in reason and move in passion.

وتحدثت امرأة قائلة: حدّثنا عن

الألم

فقال المصطفى:

إن الألم الذي بكم، هو أن يَتَفَتّقَ السِّترُ الذي يحيط بإدراككم.

وكما أن نواة الثمرة تتفتَّق لتكشف قلبها للشمس، كذلك الألم لا مناصَ لكم من أن تَخْبُروه.

ولو استطعتَ أن تجعل قلبك يَتَهَلَّلُ دائمًا للعجائب التي تَتَكَشّفُ لك كل يوم، لرأيت أن آلامك لا تَقِلُّ رَوْعَةً عن أفراحك؛

ولَرَضيتَ بالأطوار التي تنتابُ قلبك، كما رضيْت دائمًا بالفصول تتعاقَب على حقلك،

ولَوَقَفْتَ رابِطَ الجَأش، تَرْقُبُ شتاءَ أحزانك.

* * *

إنما أنت الذي اخترتَ أكثرَ آلامك.

إنها الدواءُ المرّ، به يُداوي مرضَك طبيبٌ خَفيٌّ في نفسك؛

And a woman spoke, saying,

Tell us of *Pain.*

And he said:

Your pain is the breaking of the shell that encloses your understanding.

Even as the stone of the fruit must break, that its heart may stand in the sun, so must you know pain.

And could you keep your heart in wonder at the daily miracles of your life, your pain would not seem less wondrous than your joy;

And you would accept the seasons of your heart even as you have always accepted the seasons that pass over your fields.

And you would watch with serenity through the winters of your grief.

***

Much of your pain is self-chosen.

It is the bitter potion by which the physician within you heals your sick self.

فَلْتَثِقَنّ إذا بالطبيب، ولتتجرّع دواءه في صمت وطمأنينة،

فإن يده، وإن بدت ثقيلةً خَشِنة، لَتَهْديها يدٌ حانيَةٌ **لا يُرى صاحبُها الأعلى**.

والكأس التي جلَبها، وإن أحرقت شفتيْك، قد صُنِعَتْ من صلصال مزجه **الخزّاف الأعلى** بدموعه المقدَّسة.

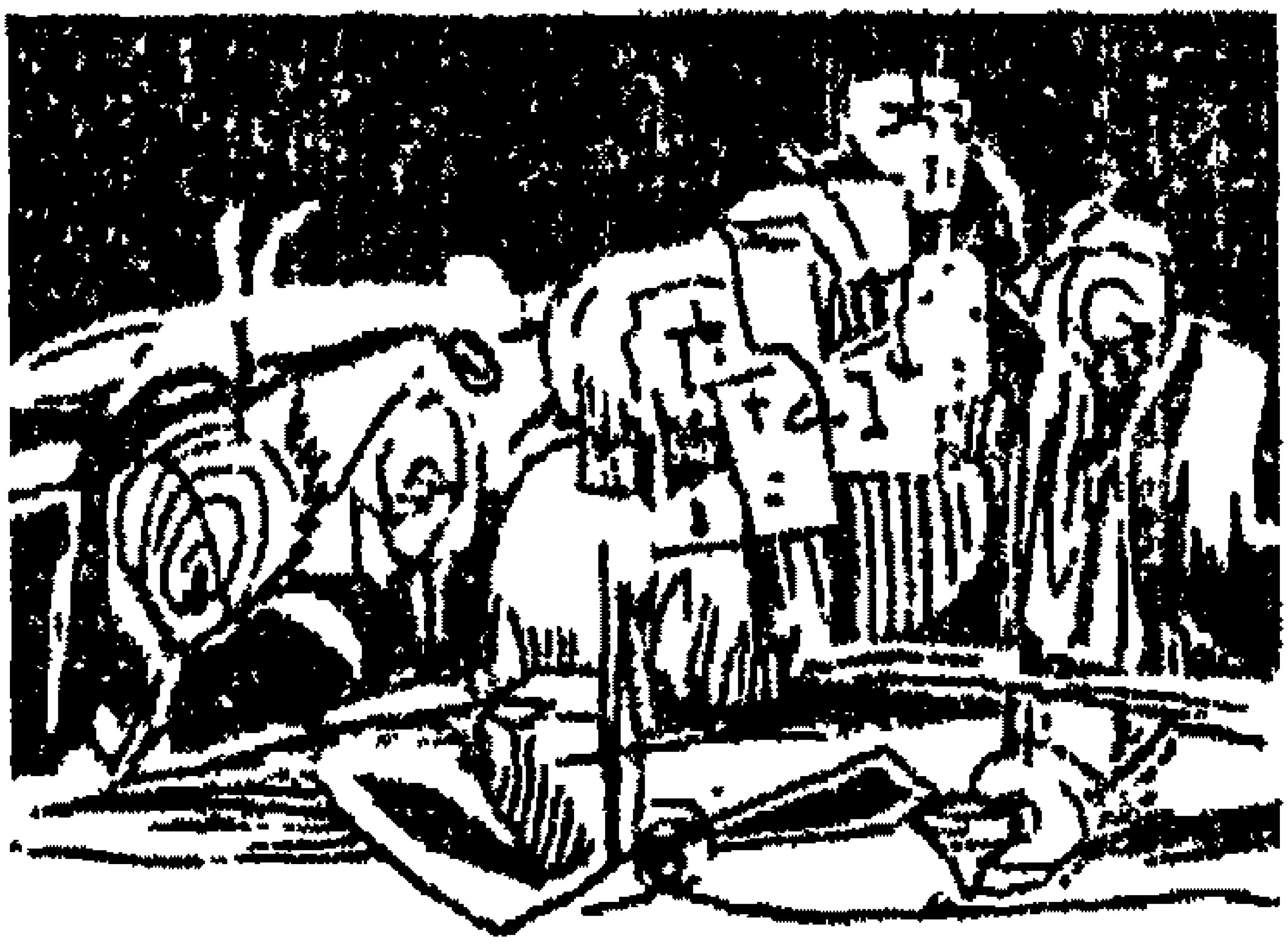

Therefore trust the physician and drink his remedy in silence and tranquillity:

For his hand though heavy and hard is guided by the tender hand of the Unseen.

And the cup he brings though it burn your lips, has been fashioned of the clay which the Potter has moistened with His own sacred tears.

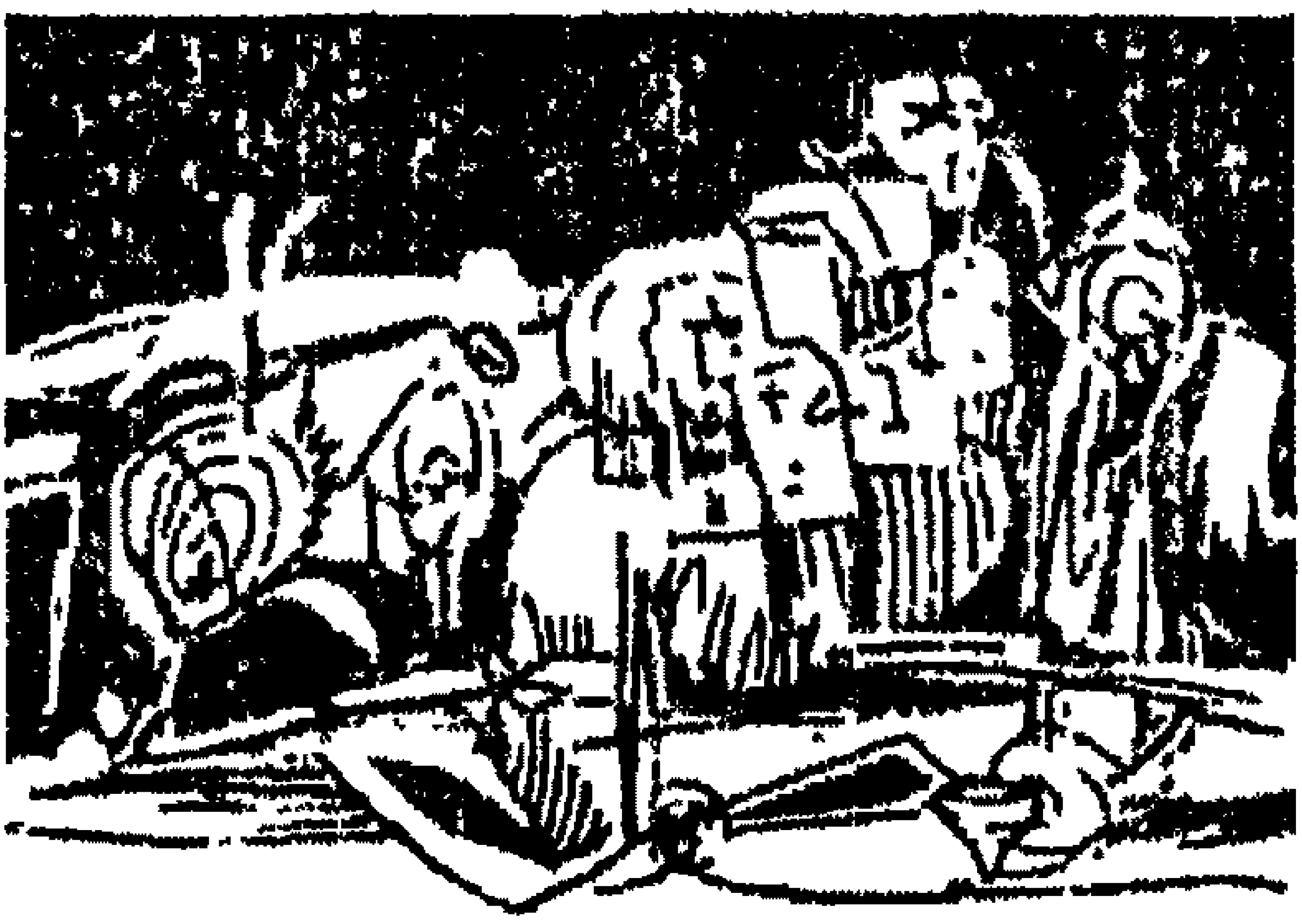

وقال رجل: حدِّثنا عن

مَعْرِفة النفْس

فقال المصطفى:

إن قلوبكم في صَمْتٍ تُدرك أسرار الأيام والليالي،

لكن آذانكم تتعطَّش إلى صوت المعرفة ينبعث من قلوبكم.

وكم تتمنَّون أن تعرفوا باللَّفْظ ما عرفتموه دائمًا بالفكْر،

وأن تلمسوا بأصابعكم العُرْيَ في أجساد أحلامكم العارية.

* * *

ونِعْمَ ما تُريدون؛

فلا بدَّ أن يفيضَ اليَنْبوعُ المحجوب في نفوسكم،

وأن ينطلق مُهَمْهِمًا صوْبَ البحر،

وأن يَتكشَّفَ لأبصاركم الكَنْزُ المنطوي في أغوار نفوسكم السَّرْمَديَّة.

ولكن حذارِ أن تَزِنوا بالموازين كنوزكم الخافية،

And a man said,

Speak to us of *self-knowledge*.

And he answered, saying:

Your hearts know in silence the secrets of the days and the nights.

But your ears thirst for the sound of your heart's knowledge.

You would know in words that which you have always known in thought.

You would touch with your fingers the naked body of your dreams.

***

And it is well you should.

The hidden well-spring of your soul must needs rise and run murmuring to the sea;

And the treasure of your infinite depths would be revealed to your eyes.

But let there be no scales to weigh your unknown treasure;

أو تُدلُوا بالعُصيّ أو الحبال لتَسْبُروا أغوارَ معرفتكم،

فإن الذّات بَحْرٌ مُتَرامٍ لا يُحَدُّ ولا يُقاس.

* * *

ولا تقلْ: «وجدتُ الحقيقة»،

بل قلْ: «وجدتُ بعض الحقيقة».

ولا تقلْ: «اكتشفتُ سبيلَ الرّوح».

بل قلْ: «وجدتُ الرّوحَ تسيرُ في سبيلي».

فإن الرّوح تسير في جميع السُّبُل؛

لا تسير في خَطٍّ مَرْسوم، ولا تنمو كما تنمو القَصَبَة(١)،

وإنما هي تتفتَّح كزَهْرَة اللّوتس، أكمامُها لا تُحْصَى.

---

(١) القصبة: كل أنبوبة في ساق الشجر تنتهي بعقدتين.

And seek not the depths of your knowledge with staff or sounding line.

For self is a sea boundless and measureless.

***

Say not, "I have found the truth,"

but rather, "I have found a truth."

Say not, "I have found the path of the soul."

Say rather, "I have met the soul walking upon my path."

For the soul walks upon all paths.

The soul walks not upon a line, neither does it grow like a reed.

The soul unfolds itself, like a lotus of countless petals.

وهنالك قال مُعَلِّم: حدِّثنا عن

التَّعليم

فقال المصطفى:

لا يستطيع إنسان أن يكْشفَ لك عن شيء
كان غافيًا في فَجْر مَعْرِفَتك.

المعلّمُ الذي يمشي في ظلِّ المعبد بين مُر
يُعطي من حِكْمَته، بل من إيمانه ومحبّته،

فإن كان قد أوتي الحكمة حقًا، فإنه لا يدع
باب حِكْمته، بل يقودك إلى عَتَبَة فكْرك أنت.

والفَلَكيُّ قد يُحدِّثك عن فهمه للفَضاء،
يستطيع أن يمنحك هذه المعرفة.

والموسيقيُّ قد يُنْشد لك اللَّحْنَ الذي عَمَّ
أرجاء الفضاء، لكنه لن يستطيع إعارتَك الأ
تلتقطُ الإيقاع، ولا الصَّوتَ الذي يُردِّده.

والعالم المتَمكِّن من حساب الأعداد يس
يُحدِّثك عن مجالات الوزن والقياس،
يستطيع أن يقود خُطاك إليها؛

Then said a teacher,

Speak to us of *Teaching*.

And he said:

No man can reveal to you aught but that which already lies half asleep in the dawning of your knowledge.

The teacher who walks in the shadow of the temple, among his followers, gives not of his wisdom but rather of his faith and his lovingness.

If he is indeed wise he does not bid you enter the house of his wisdom, but rather leads you to the threshold of your own mind.

The astronomer may speak to you of his understanding of space, but he cannot give you his understanding.

The musician may sing to you of the rhythm which is in all space, but he cannot give you the ear which arrests the rhythm, nor the voice that echoes it.

And he who is versed in the science of numbers can tell of the regions of weight and measure, but he cannot conduct you thither.

وهنالك قال مُعَلِّم: حدِّثنا عن

التّعليم

فقال المصطفى:

لا يستطيع إنسان أن يكْشفَ لك عن شيء إلاّ إذا كان غافيًا في فَجْرِ مَعْرِفَتك.

المعلّمُ الذي يمشي في ظلِّ المعبد بين مُريديه لا يُعطي من حِكْمَتِه، بل من إيمانه ومحبّته،

فإن كان قد أوتي الحكمة حقًا، فإنه لا يدعك تَلِجُ باب حِكْمته، بل يقودك إلى عَتَبَةِ فكْرِك أنت.

والفَلَكيُّ قد يُحدِّثك عن فهمه للفَضاء، لكنه لن يستطيع أن يمنحك هذه المعرفة.

والموسيقيُّ قد يُنْشد لك اللَّحْنَ الذي عَمَّ إيقاعُه أرجاء الفضاء، لكنه لن يستطيع إعارتَك الأذن التي تلتقطُ الإيقاع، ولا الصَّوتَ الذي يُردِّده.

والعالم المتَمكِّن من حساب الأعداد يستطيع أن يُحدِّثكَ عن مجالات الوزن والقياس، لكنه لن يستطيع أن يقود خُطاك إليها؛

Then said a teacher,
Speak to us of *Teaching*.

And he said:

No man can reveal to you aught but that which already lies half asleep in the dawning of your knowledge.

The teacher who walks in the shadow of the temple, among his followers, gives not of his wisdom but rather of his faith and his lovingness.

If he is indeed wise he does not bid you enter the house of his wisdom, but rather leads you to the threshold of your own mind.

The astronomer may speak to you of his understanding of space, but he cannot give you his understanding.

The musician may sing to you of the rhythm which is in all space, but he cannot give you the ear which arrests the rhythm, nor the voice that echoes it.

And he who is versed in the science of numbers can tell of the regions of weight and measure, but he cannot conduct you thither.

لأن بَصيرة هذا لا تُعير ذاك جناحَها.

وكما أن كلَّ واحد منكم قائمٌ بذاته في علْم الله، كذلك يجب أن يكون كلٌّ منكمَ قائمًا بذاته فَي عِلْمِه بالله، وفَهْمِهِ أسرار الأرض.

For the vision of one man lends not its wings to another man.

And even as each one of you stands alone in God's knowledge, so must each one of you be alone in his knowledge of God and in his understanding of the earth.

وقال شابٌّ: حدِّثنا عن

الصَّداقة

فقال المصطفى:

صديقُك هو حاجَةٌ لك قُضيت،

وهو حَقْلك تُلقي فيه البذور في حُبٍّ، وتجني منه الثّمار في شُكر،

وهو مائدة طعامك ومدْفأتك؛

لأنك تَسْعى إليه بجوعك، وتَنْشُد عنده الطُّمأنينة.

* * *

وحين يُفضي إليك صديقُك بما يدور في نفسه لا تخشَى أن تُصرِّح له بـ «لا»، وأن تَضنَّ عليه بـ «نعم».

فإذا أمسك عن الكلام، ظلَّ قلبك يُصغي إلى حديث قلبه؛

ففي الصَّداقة تنبعث الأفكار والرَّغبات والأماني جميعًا في صمت، وتُشارِكُ فيها النُّفوسُ في بهجة مُضْمَرة.

وإذا نَأيْتَ عن صديقك فلا يُصيبَنَّك الأسى؛

And a youth said,

Speak to us of *Friendship*.

And he answered, saying:

Your friend is your needs answered.

He is your field which you sow with love and reap with thanksgiving.

And he is your board and your fireside.

For you come to him with your hunger, and you seek him for peace.

***

When your friend speaks his mind you fear not the "nay" in your own mind, nor do you withhold the "ay."

And when he is silent your heart ceases not to listen to his heart;

For without words, in friendship, all thoughts, all desires, all expectations are born and shared, with joy that is unacclaimed.

When you part from your friend, you grieve not;

فلربما كان خيرُ ما تحبُّ فيه أوضح في غَيْبَته، مثلما يزيد وضوحُ الجبل للمتَسَلِّق إذا رَمَقَهُ من الوادَي.

وحَذارِ أن تجعل للصداقة هدفًا غير النَّفاذ إلى السَّريرة؛

فإن الحب الذي لا يَنْشُد إلاّ الكشف عن أسراره ليس حبا،

وإنما هو شَبَكَةٌ تُطْرحُ، فلا تَلْقُطُ إلا الغَثَّ الذي لا نَفْعَ فيه.

* * *

وادَّخرْ لصديقك خير ما في نفسك؛

فإذا حُقَّ له أن يعرف ما يصيب حياتَك من جَزْرٍ، فدَعْهُ يَعْلَمْ أيضًا مايَغْمُرُها من مَدٍّ.

وأيّ صديق هذا الذي لا تلتمسه إلا لتُزْجي معه أوقات الفراغ؟

فانشُد صديقك دائمًا لتقاسمه سويْعات الحياة المثمرات؛

فما وُجد الصَّديق ليملأ فراغ نفسك بل ليسَّد حاجَتَك.

For that which you love most in him may be clearer in his absence, as the mountain to the climber is clearer from the plain.

And let there be no purpose in friendship save the deepening of the spirit.

For love that seeks aught but the disclosure of its own mystery is not love

But a net cast forth: and only the unprofitable is caught.

***

And let your best be for your friend.

If he must know the ebb of your tide, let him know its flood also.

For what is your firend that you should seek him with hours to kill?

Seek him always with hours to live.

For it is his to fill your need, but not your emptiness.

And in the sweetness of friendship let

ولْتَمزُجَنَّ عذوبة الصَّداقة بالضحك والبهجَةِ المشْتَركَة؛

ففي قَطْرِ النَّدَى الذي يُبَلِّل دَقائِقَ الأشْياءِ، يُطالِعُ القلبُ صباحَه وينْتَعِش.

there be laughter,and sharing of pleasures.

For in the dew of little things the heart finds its morning and is refreshed.

وقال له عالِم: حدِّثنا عن

الكلام

فقال المصطفى:

إنكم تتكلَّمون حين يَدبُّ الخصامُ بينكم وبين أفكاركم،

فإذا عجزتم عن أن تَخْلدوا إلى عزلة قلوبكم تعلَّقت حياتُكم بشفاهِكم، وانطلقت أصواتكم تلهيةً وإزْجاءً للفراغ.

ومع أكثر كلامكم يَهْلِكُ نصفُ تفكيركم؛

لأن الفكْر من طَيْر الفضاء، قد يستطيع أن ينشر جناحيْه فيَ قَفَصِ الألفاظ، لكنه يعجز عن أن يطير.

* * *

ومنكم مَن يسعى إلى مَن يُثَرْثرون؛ خَشْيَةَ الخُلوِّ إلى نفسه؛

لأن سكون الوَحْدة يكشف لأعينهم خَفايا ذواتهم العارية فيفرُّون منها.

ومنكم من يتحدَّثون، فيكشفون بلا عِلْمٍ أو رَوِيَّة عن حقائق يفوتُهم معناها.

And then a scholar said,

Speak of *talking*.

And he answered, saying:

You talk when you cease to be at peace with your thoughts;

And when you can no longer dwell in the solitude of your heart you live in your lips,and sound is a diversion and a pastime.

And in much of your talking, thinking is half murdered.

For thought is a bird of space, that in a cage of words may indeed unfold its wings but cannot fly.

***

There are those among you who seek the talkative through fear of being alone.

The silence of aloneness reveals to their eyes their naked selves and they would escape.

And there are those who talk, and without knowledge or forethought reveal a truth which they themselves do not understand.

ومنكم من لَقنوا الحقيقة في أعماقهم، لكنهم يأبُون أن يُفْصحوَا عنها بالكلام،

وفي صدر هؤلاء تقيم الروح في إيقاع السّكون.

* * *

إذا لقيتَ صديقك في الطَّريق أو في السُّوق، فَدَعِ الرّوح الكامِنة فيك تُحرِّك شفتيك وتُوجِّه لسانك.

دعْ الصَّوت الهاتف وراء صوتك يتحدَّث إلى الأذنَ المُصْغيَة من وراء أذنه؛

فإن روحَه تحفظ حقيقة قلبك، كما يحفظ اللسان مَذاقَ النَّبيذ

يوم يُنْسَى لونُه وتُطْوى كأسُه.

And there are those who have the truth within them, but they tell it not in words.

In the bosom of such as these the spirit dwells in rhythmic silence.

***

When you meet your friend on the roadside or in the market-place, let the spirit in you move your lips and direct your tongue.

Let the voice within your voice speak to the ear of his ear;

For his soul will keep the truth of your heart as the taste of the wine is remembered.

When the colour is forgotten and the vessel is no more.

وقال فلكيٌّ: أيها الهادي، حدِّثنا عن

الزّمن

فقال المصطفى:

تَودّون أن تقيسوا الزَّمن الذي لا يُقاس ولا يُحدُّ،

وأن تُخْضعوا سُلوككم لمقتضى السّاعات والفصول، بلَ تستهدوا بها في منازع نفوسكم،

وأن تجعلوا من الزَّمن جدولاً تجلسون على ضفافه، وتتأمَّلون مَجْراه.

* * *

لكن ما هو خالدٌ فيكم يُدْرك أن الحياة لا يَحُدُّها زمان،

ويعلم أن الأمس ما هو إلاّ ذاكِرَة اليوم، وأن الغد ما هو إلا حُلمه،

وأن ما يتغنّى فيكم ويتأمل لا يزال يسكن في رحاب اللَّحظة الأولى، تلك التي انتثَرت فيها النُّجوم فَي الفضاء.

And an astronomer said,

Master, what of *time*?

And he answered:

You would measure time the measureless and the immeasurable.

You would adjust your conduct and even direct the course of your spirit according to hours and seasons.

Of time you would make a stream upon whose bank you would sit and watch its flowing.

***

Yet the timeless in you is aware of life's timelessness,

And knows that yesterday is but today's memory and to-morrow is to-day's dream.

And that that which sings and contemplates in you is still dwelling within the bounds of that first moment which scattered the stars into space.

فأيّكم لا يُحِسُّ أن قدرته على الحبِّ لا تَعرفُ الحدود؟

ولكن أيكم لا يشعر أن هذا الحبَّ نفسه، وإنْ أفلَتَ من الحدود، مَضْموم في صدر وجوده، لا يَخْرُجُ من فِكْرة حبٍّ إلى أخرى، ولا من مَسْعَى حبٍّ إلى آخر؟

أليس الزمن كالحبِّ نفسه، لا ينقسم ولا يُقاس؟

* * *

فإذا تَراءى لكم أن تقسِّموا الزَّمن إلى فصول، فاجعلوا كلَّ فَصْل يُحيط بالفصول الأخرى جميعًا،

ودعوا الحاضرَ يُعانقُ الماضِيَ بالذِّكرى والغدَ بالحنين.

Who among you does not feel that his power to love is boundless?

And yet who does not feel that very love, though boundless, encompassed within the centre of his being, and moving not from love thought to love thought, nor from love deeds to other love deeds?

And is not time even as love is, undivided and paceless?

***

But if in your thought you must measure time into seasons, let each season encircle all the other seasons,

And let to-day embrace the past with remembrance and the future with longing.

وقال شيخ من أهل المدينة: حدِّثنا عن

الخير والشَّرّ

فقال المصطفى:

عن الخير فيكم أستطيعُ الحديثَ، لا عن الشَّرّ.

وهل الشَّرُّ إلاّ خيرٌ أضناهُ ما كَمَنَ فيه من جوع وظَمأ؟

لَعَمْري إن الخير إذا جاع التمس الطّعام ولو في الكهوف المظْلِمَة، وإذا عَطِشَ رَوَى ظمأه ولو من المياه الآسنة.

* * *

أنت خيِّرٌ إذا ثَبتَّ على مبدأ واحد مع نفسك،

لكنك لا تُصبح شرّيراً إذا أنت لم تفعل.

فإن البيت المنقَسم على نفسه ليس وكْراً لِلُّصوص؛ هو بيت مُنْقَسمٌ علىَ نفسه فحَسْب.

وقد تهيم السَّفينة بلا دَفَّة شَريدةً بين الجُزُر المحفوفة بالمخاطر، لكنها لا تَهوي إلى القاع.

* * *

And one of the elders of the city said, Speak to us of *Good and Evil.*

And he answered:

Of the good in you I can speak, but not of the evil.

For what is evil but good tortured by its own hunger and thirst?

Verily when good is hungry it seeks food even in dark caves, and when it thirsts it drinks even of dead waters.

***

You are good when you are one with yourself.

Yet when you are not one with yourself you are not evil.

For a divided house is not a den of thieves; it is only a divided house.

And a ship without rudder may wander aimlessly among perilous isles yet sink not to the bottom.

***

وأنت خَيِّرٌ حين تَسْعَى جاهداً للَبْذلِ من ذات نفسك،
لكنك لا تغدو شرِيِّرًا حين تلتمس لنفسك الغُنْم.

وما مَثَلُك حين تسعى إلى الغُنم إلاّ كمثل الجذور تتشبَّث بالأرض لترضع من أثدائها.

يقيناً إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذور: «كوني مثلي، ناضِجَة وافِيَة، تَجودين دائمًا بما أوتيت من وفرة».

لأن العطاء عند الثَّمرة حاجَة، كما أن الأخذ عند الجذور حاجَة.

* * *

وأنت خيِّر حين تتحدَّث وأنت في كامل يَقَظَتِك،

لكنك لا تكون شرِيّرًا حين تَغْفو، ولسانك يتلعثم بلا هدف؛
فلربّما كان الحديثُ المتعثِّر مُعينًا لِلسانِ عاجز.

* * *

وأنت خيّرٌ حين تمضي إلى غايتك ثابت العزم والخُطَى،

You are good when you strive to give of yourself.

Yet you are not evil when you seek gain for yourself.

For when you strive for gain you are but a root that clings to the earth and sucks at her breast.

Surely the fruit cannot say to the root, "Be like me, ripe and full and ever giving of your abundance."

For to the fruit giving is a need, as receiving is a need to the root.

***

You are good when you are fully awake in your speech,

Yet you are not evil when you sleep while your tongue staggers without purpose.

And even stumbling speech may strengthen a weak tongue.

***

You are good when you walk to your goal firmly and with bold steps.

لكنك لا تكون شرِّيراً حين تمضي بخُطى عَرْجاء .

فإن الأعرج، على عرَجه، لا يعود إلى وراء .

أما أنتم أيها الأقوياء السِّراع الخُطى، فلا تصطنعوا العرَجَ أمام الأعرج؛ تخالُونه رحمةً به وشَفَقَة .

* * *

إنك لخيِّرٌ في أمور لا تُحْصى ولا تُعَدُّ، لكنك لا تكون شرِّيراً حين يُجانبُك الخير .

فما أنت إلا كمن يَتَلكَّأ ويَتَباطأ .

ومن أسَف أن الظِّباء لا تستطيعُ أن تُعلِّم السَّلاحِفَ الخِفَّة والسُّرْعة .

* * *

إن الخَيْرَ يكْمُن في الشَّوْق إلى نفسك الشامِخَة، وما مِنْ أحدٍ منكم إلاّ يُكابِدُ هذا الشَّوق .

لكنه في بعضكم كالسَّيْل المُجتاح، يندفعُ جارفاً صوب البحر، حاملاً أسرار التِّلال وأناشيد الغاب .

وفي بعضكم كالجَدْول الهادئ، يتأوّد في

Yet you are not evil when you go thither limping.

Even those who limp go not backward.

But you who are strong and swift, see that you do not limp before the lame, deeming it kindness.

***

You are good in countless ways, and you are not evil when you are not good,

You are only loitering and sluggard.

Pity that the stags cannot teach swiftness to the turtles.

***

In your longing for your giant self lies your goodness: and that longing is in all of you.

But in some of you that longing is a torrent rushing with might to the sea, carrying the secrets of the hillsides and the songs of the forest.

And in others it is a flat stream that loses

المُنحَنيـاتِ والمُنْعَطَفـات، ويَتَـريَّث قـبل أن يبلغ الشاطئ.

لكن حـذار أن يقـول مَن لَجَّ به الشَّـوق لمن قَلَّ شوقُه: «فيمَ تريثُّك وتوقُّفُك؟»

فإن الخيِّرَ حقّا لا يقول للعُريان: «أين ثوبك؟» ولا للشَّريد: «ما الذي دَهَم بيتَك؟».

itself in angles and bends and lingers before it reaches the shore.

But let not him who longs much say to him who longs little, "Wherefore are you slow and halting?"

For the truly good ask not the naked, "where is your garment?" nor the houseless, "what has befallen your house?"

وقالت كاهنة: حدِّثنا عن

الصلاة

فقال المصطفى:

أنتم تُصَلّون إذا مَسَّكُم ضُرٌّ أو أعوزَتْكم حاجَة، وليتكم تُصَلّون أيضًا إذا غَمَرَ قلوبكم الفَرَحُ وعَمَرَ أيامكم الرَّخاءُ.

* * *

وهل الصَّلاة إلاّ انطلاق الرّوح في الأثير الحيّ؟

وإذا كنتم تَجدون راحَةَ قُلوبكم حينَ تَصبُّون ظُلْمَةَ نُفوسكم في الفَضاء، فلسوف تستَشْعِرونَ المسرَّةَ أيضًا حينَ تَصبّون فيه إشراقةَ قُلوبكم.

وإذا كنتم لا تَتمالكون دموعكم حين تدعوكم أرواحُكم إلى الصَّلاة، فسوف تَحثُّكم عليها مرَّة ثم أخرى رَغْم بُكائكم؛ حتى تفرغوا من الصلاة مُتَهَلِّلين؛

فإن نفوسكم لَتَصْعد حين تُصَلّون لتلقى أرواح أولئك الذين يُصلُّون في اللحظة نفسها، وهيهات أن يَتمَّ لقاءٌ بينكم إلاّ في الصّلاة.

فَلْتَحُجُّنَّ إذًا إلى هذا المعبد المحجوب، لا غاية

Then a Priestess said,

Speak to us of *prayer*.

And he answered, saying:

You pray in your distress and in your need; would that you might pray also in the fullness of your joy and in your days of abundance.

***

For what is prayer but the expansion of yourself into the living ether?

And if it is for your comfort to pour your darkness into space, it is also for your delight to pour forth the dawning of your heart.

And if you cannot but weep when your soul summons you to prayer, she should spur you again and yet again, though weeping, until you shall come laughing.

When you pray you rise to meet in the air those who are praying at that very hour, and whom save in prayer you may not meet.

Therefore let your visit to that temple

لكم من زيارته إلا نشوةُ الوَجْد وعذوبة الألْفَة؛

لأنك إذا لم تدخل المعْبَد إلاّ سائلاً، فلن تنال حاجَتَك.

وإن أنت لم تدخُلْه إلاّ لإذلال نفسك، فلن تَسمو لك روحٌ،

وحتى إذا دخلته لاستجداء الخَيْر لسواك، فلن يُنْصتَ لضراعتك أحدٌ.

وحَسْبُك أنْ تَدْلُفَ إلى المعبد في خَفاء مُتَستِّراً.

* * *

وهيهات أن أعلِّمكم كيف تُصلّون بكلمات تُردَّد؛

فإن الله لا يستمعُ إلى كلماتكم إلاّ إذا أجْراها هو على شفاهكم.

وهيهاتَ أن أعلِّمكم الصَّلاة التي تُسَبِّح بها البحار والغابُ والجبال؛

فلأنتم يا أبناءَ البحار والغاب والجبال قادرون على أن تَلْتَمسوها في حنَايا قلوبكم.

وحسبكم أن تُنْصتوا في هَدْأة اللَّيل، فتسمعوها تُردِّد في سكون:

invisible be for naught but ecstasy and sweet communion.

For if you should enter the temple for no other pupose than asking you shall not receive:

And if you should enter into it to humble yourself you shall not be lifted:

Or even if you should enter into it to beg for the good of others you shall not be heard.

It is enough that you enter the temple invisiblle.

***

I cannot teach you how to pray in words.

God listens not to your words save when He Himself utters them through you lips.

And I cannot teach you the prayer of the seas and the forests and the mountains.

But you who are born of the mountains and the forests and the seas can find their prayer in your heart,

And if you but listen in the stillness of the night you shall hear them saying in silence:

«ربَّنا، يا روحَنا المُجنَّحة تُرَفرف علينا من سمائك؛ إن إرادتك الماثلةَ فينا هي التي تريد،

ورَغْبَتَك الماثلةَ فينا هي التي تَرْغَبُ،

والحافز الذي نَفَحْتَ أعماقنا به هو الذي يُحوِّل لَيْلَنا - وهو ليْلُكَ - إلى نهار هو أيضًا لك.

«ربَّنا إنا لا نسألك شيئًا؛ فإنك تَعْرِفُ حاجَتَنا قبل أن تُولَد فينا،

ولأنْتَ حاجَتُنا، ولئن زِدْتَنا عَطاءً من ذاتك، فقد أعطيتنا كل شيء».

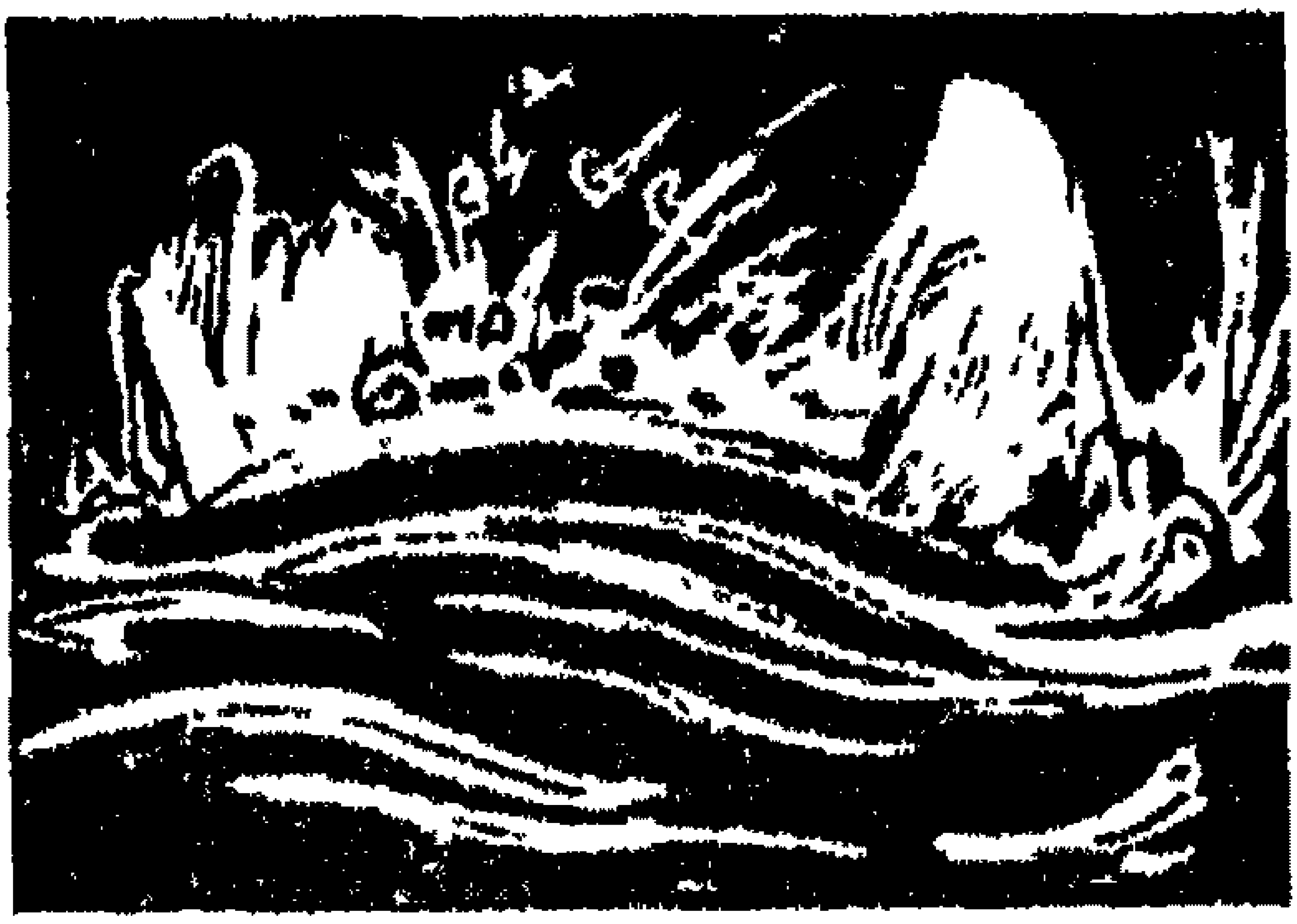

"Our God, who art our winged self, it is thy will in us that willeth.

"It is thy desire in us that desireth.

"It is thy urge in us that would turn our nights, which are thine, into days which are thine also.

"We cannot ask thee for aught, for thou knowest our needs before they are born in us:

"Thou art our need; and in giving us more of thyself thou givest us all."

وهنالك تَقَدَّمَ إليه ناسكٌ كان يزور المدينة مرَّة في كل عام، وقال: حدِّثنا عَن

المتعة

فقال المصطفى:

المتعة أُنْشودَةُ حُرِّيَّة،

لكنها ليست الحرِّيَّة.

إنها رغباتكم تتفتَّح أكمامُها،

لكنّها ليست ثمارها.

إنها عمقٌ ينادي العُلا،

لكنها ليست العَميق ولا العَليَّ.

بل هي ذلك الذي احتبس في قَفَص، ثم اتّخذ جناحًا،

وليست فضاء تكتنفه حدود.

لعمْري إنما المتعةُ أنشودة حُرِّيَّة.

ولكَمْ تمنَّيتُ لو بها تغنَّيتم بمِلء قلوبكم،

لكني لا أتمنّى أن تفقدوا قلوبكم في الغناء.

* * *

Then a hermit, who visited the city once a year, came forth and said,

Speak to us of *Pleasure*.

And he answered, saying:

Pleasure is a freedom-song,

But it is not freedom.

It is the blossoming of your desires,

But it is not their fruit.

If is a depth calling unto a height,

But it is not the deep nor the high.

It is the caged taking wing,

But it is not space encompassed.

Ay, in very truth, pleasure is a freedom-song.

And I fain would have you sing it with fullness of heart;

yet I would not have lose your heartsin the singing.

***

إنّ بعض شبابكم يسعى إلى المتعة كأنها كل شيء،
فتلحقُهم الإدانة ويَحقُّ عليهم التَّأنيب.

ولو كنت منكم ما أدَنْتُهم ولا أنَّبتهم، بل لَشَجَّعْتُ مَسْعاهم؛

لأنهم حين يجدون المتعة لن يجدوها منفردة،

فسَبْعٌ هُنَّ أخواتها، وأقلُّهن جمالاً أبهى من المتعة ذاتها.

ألم يأتكُم نَبَأ الذي راح يَنْبُشُ الأرضَ بحثًا عن الجذور فاكتشف كَنْزاً؟

* * *

إن بعض الشُّيوخ منكم يذكرون المُتَعِ التي نَعموا بها نادمين، كما لو كانت آثامًا اقْترفوها وهم سُكارَى.

لكنَّ النّدم غاشِيَة تَحِلُّ بالفكر وليست عقوبة،

وأوْلى بهم أن يذَّكروا متعهم شاكرين ممتنّين، تَذكُّرهم محصول الصيَّف.

فإذا لم يكن غير النَّدم راحة لِقُلوبِهم، فَدَعْهُمْ يَلْتَمِسونَ الرّاحَةَ فيه.

Some of your youth seek pleasure as if it were all, and they are judged and rebuked.

I would not judge nor rebuke them. I would have them seek.

For they shall find pleasure, but not her alone;

Seven are her sisters, and the least of them is more beautiful than pleasure.

Have you not heard of the man who digging in the earth for roots and found a treasure?

***

And some of your elders remember pleasures with regret like wrongs committed in drunkenness.

But regret is the beclouding of the mind and not its chastisement.

They should remember their pleasures with gratitude, as they would the harvest of a summer.

Yet if it comforts them to regret, let them be comforted.

ومنكم مَن ليسوا بشباب يَسْعى إلى المتعة، ولا هم شيوخ يَذّكّرون،

وفي جَزَعهم من السَّعي والذّكْرَى يتحاشَون المُتع جميعًا خَشْيةَ أن يُهْملوا رعاية أرواحهم أو يُسيئوا إليها.

أولئك مُتْعتهم في اطّراح المُتعة.

وهكذا يكتشفون هم أيضًا كنزًا، وإن كان نَبْشُهم بحثًا عن الجذور بأيد ترتعش.

لكن خبِّروني: مَن ذا الذي يستطيع أن يُسيء إلى الرّوح؟

أوَ يستطيع البلبلُ أن يُعكِّر صَفْوَ اللّيْل، أو تُسيء اليَراعَةُ إلى النّجوم؟

وهل تستطيع شُعْلَتك أو دُخانُك أن يُثْقِلَ كاهِلَ الرّياح؟

أوَ تَحْسَبُ أن الرّوح بِرْكَةٌ هامِدَة تستطيع أن تُزْعِجَ صَفْوَهَا بِعَصاك؟

* * *

And there are among you those who are neither young to seek nor old to remember;

And in their fear of seeking and remembering they shun all pleasures, lest they neglect the spirit or offend against it.

But even in their foregoing is their pleasure.

And thus they too find a treasure though they dig for roots with quivering hands.

But tell me, who is he that can offend the spirit?

Shall the nightingale offend the stillness of the night, or the firefly the stars?

And shall your flame or your smoke burden the wind?

Think you the spirit is a still pool which you can trouble with a staff?

***

ألا ما أكثرَ ما يكون إعراضُك عن المتعة ادِّخاراً لشوقك إليها في أطواء ذاتك .

ومن يدري أن ما تُنْكِره اليوم لا ينتظرك في غدك؟

إن جسدك نفسه لَيَعْلَم ما وَرِثَ، ويعلم حاجَتَه الحَقَّة، ولن يخدعه عنها شيء .

وجسدُك هو قيثارَةُ روحك،

أنت الذي تُنْطقها بالنَّغم العَذب، أو اللَّحن المضطرب .

* * *

ولْتُسائلَنَّ نفسك الآن: كيف أميِّز في المتعة بين ما هو خَيْرٌ وَمَا هو شَرٌّ؟

ألا فامض إلى الحقل والبستان، ترى أن النَّحلة تجد المتْعَة في جَنْي العَسَل من الزَّهرة .

لكن الزَّهرة أيضًا تجد المُتْعة فى أن تُسْلِمَ النحلَ رحيقَها .

فالزَّهرةُ في عيْن النَّحلة ينبوع حياة،

والنَّحلةُ في عين الزَّهرة رسولُ حُبّ .

Oftentimes in denying yourself pleasure you do but store the desire in the recesses of your being.

Who knows but that which seems omitted to-day, waits for to-morrow?

Even your body knows its heritage and its rightful need and will not be deceived.

And your body is the harp of your soul,

And it is yours to bring forth sweet music from it or confused sounds.

***

And now you ask in your heart, "How shall we distinguish that which is good in pleasure from that which is not good?"

Go to your fields and your gardens, and you shall learn that it is the pleasure of the bee to gather honey of the flower,

But it is also the pleasure of the flower to yield its honey to the bee.

For to the bee a flower is a fountain of life,

And to the flower a bee is a messenger of love,

والنَّحلةُ والزَّهرة يجدان في الأخذ والعطاء حاجةً ونَشْوَةً.

* * *

يا أهل أورفاليس، كونوا في مُتْعَتِكم كالزَّهر والنَّحل.

And to both, bee and flower, the giving and the receiving of pleasure is a need and an ecstasy.

***

People of Orphalese, be in your pleasures like the flowers and the bees.

وقال شاعر: حدِّثنا عن

الجمال

فقال المصطفى:

كيف تَسْعَون إلى الجَمال، وكيف تجدونه إن لم يكن هو الطَّريق والدَّليل؟

وكيف تتحدَّثون به إلاّ إذا كان هو الذي يَحيكُ بُرُدَ حديثكم؟

* * *

يقول المظلوم ويقول المكْلوم:

«الجَمال رفيقٌ رَقيقٌ،

يسيرُ كما تسير الأم الشّابَّة بيننا على شيء من الاستحياء، لما تَحْمِلُ من فَخْرٍ».

* * *

ويقول مَشْبوبُ العاطفَة:

«لا، بل الجَمالُ قويٌّ مَرْهوب كالعاصفة تُزَلْزِلُ الأرض من تحتنا، وتهزُّ السَّماء من فوقنا».

* * *

And a poet said,

Speak to us of *Beauty*.

And he answered:

Where shall you seek beauty, and how shall you find her unless she herself be your way and your guide?

And how shall you speak of her except she be the weaver of your speech?

***

The aggrieved and the injured say,

"Beauty is kind and gentle.

"Like a young mother half-shy of her own glory she walks among us."

***

And the passionate say, "Nay, beauty is a thing of might and dread.

"Like the tempest she shakes the earth beneath us and the sky above us."

***

ويقول المتْعبُ المنْهوكُ :

«الجَمالُ همسات ناعِمَة تُنْدي أرواحنا ،

ويَخْلُدُ صوتُه إلى سَكناتِنا كالضَّوء الخافت ، يَرْتَجِفُ خوفًا من الظِّل» .

* * *

ويقول القَلقُ :

«لقد سمعنَاه يَهْتف في شِعابِ الجِبال ،

يُلاحق هُتافُه وطأ حَوافِرَ ، ورفيف أجْنِحَةٍ ، وزئير أسود» .

* * *

وفي الليل يقول حُرّاسُ المدينة :

«سيَطْلُع الجَمالُ مع الفجر من الشَّرْق» .

* * *

وفي رائعة النّهار يقول الكادحون وعابرو السَّبيل :

«لقد رأيناه يُطِلُّ على الأرضَ من نوافذَ الغروب» .

* * *

The tired and the weary say,

"Beauty is of soft whisperings. She speaks in our spirit.

"Her voice yields to our silences like a faint light that quivers in fear of the shadow."

***

But the restless say,

"We have heard her shouting among the mountains,

"And with her cries came the sound of hoofs, and the beating of wings and the roaring of lions."

***

At night the watchmen of the city say,

"Beauty shall rise with the dawn from the east."

***

And at noontide the toilers and the wayfarers say, "We have seen her leaning over the earth from the windows of the sunset."

***

ويقول أسيرُ الجَليد في الشِّتاء :

«سيأتي الجَمالُ مع الرَّبيع يتوَثَّبُ فوق التِّلال» .

* * *

ويقول الحُصّاد في قَيْظ الصَّيف :

«لقد رأيناه يُراقصُ أوراقَ الخريف ، ولَمَحْنا نُدَفَ الثَّلْج في شَعْره» .

* * *

أجلْ ، لقد وصَفْتُم الجَمالَ بهذا كله ،

لكنكم لَعَمْري لم تتحدَّثوا عنه إلاّ بحاجات لكم لم تُقْضَ .

والجمال ليس حاجة بل هو نَشْوَة .

وما هو بفَمٍ عَطْشان ، ولا يدٍ ممدودة فارِغَة ،

إنما هو قلب مُشْتَعِل ونفس مَفْتونَة .

وما هو بالصّورة التي تَوَدُّ أن تراها ، ولا الأغنية التي تَوَدُّ أن تسمعها ،

إنما هو صورة تَراها وإن أغمضت العين ، وأغنية تَسْمعُها وإن سَدَدْتَ الأذن .

In winter say the snow-bound,

"She shall come with the spring leaping upon the hills."

***

And in the summer heat the reapers say,

"We have seen her dancing with the autumn leaves, and we saw a drift of snow in her hair."

***

All these things have you said of beauty,

Yet in truth you spoke not of her but of needs unsatisfied,

And beauty is not a need but an ecstasy.

It is not a mouth thirsting nor an empty hand stretched forth,

But rather a heart inflamed and a soul enchanted.

It is not the image you would see nor the song you would hear,

But rather an image you see though you close your eyes and a song you hear though you shut your ears.

وما هو بعصير يكْمُنُ تحت لِحاء الشَّجر المخدَّد ،
ولا هو بجَناح عالقٍ بمخلب .

إنما هو بُسْتانٌ لا يغيب زَهْرُه أبداً ، وكوكبةٌ من الملائكة أبداً تُحَلِّق .

* * *

يا أبناء أورفاليس ، إن الجمال هو الحياة ساعة تَكْشِفُ عن وجهها القُدْسيِّ .

ولأنتم الحياة ، ولأنتم الحجاب .

وهو الخلود يَسْتَجْلي وَجْهَه في مرآة .

ولأنتم الخُلود ، ولأنتم المِرْآة .

It is not the sap within the furrowed bark, nor a wing attached to a claw,

But rather a garden for ever in bloom and a flock of angels for ever in flight.

***

People of Orphalese, Beauty is life when life unveils her holy face.

But you are life and you are the veil.

Beauty is eternity gazing at itself in a mirror.

But you are eternity and you are the mirror.

وقال كاهن شيخ: حدِّثنا عن

الدين

فقال المصطفى:

وهل حدَّثتكم اليوم عن شيء سواه؟

أليس الدِّين هو كل عمل وكل تفكير؟

ثم هو أيضًا ما ليس بعمل ولا تفكير، بل عَجَبٌ ودَهْشَة، ينبعثان من النَّفس دومًا، حتى حين تَنْحِتُ اليدُ الصَّخْرَ أو تُدير النَّوْلَ.

ومَن ذا الذي يستطيع أن يَفْصلَ إيمانَه عن عمله، أو عقيدته عن شَواغله؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يَنْشر أوقاته بين يديه ويقول:

«هذه للّه، وهذه لي؛ هذي لروحي، ولجسدي هذي؟»

إن أوقاتكم جميعًا لأجْنحَةٌ تضربُ في الفضاء، مُتنَقِّلة من نَفْسٍ إلى نَفْس.

* * *

ومَن اكتسى بفضائله ليَبْرُزَ في أبهى زِيِّه، أوْلَى به أن يَظَلَّ عارِيًا؛

And an old priest said,

Speak to us of *religion.*

And he said:

Have I spoken this day of aught else?

Is not religion all deeds and all reflection,

And that which is neither deed nor reflection, but a wonder and a surprise ever springing in the soul, even while the hands hew the stone or tend the loom?

Who can separate his faith from his actions, or his belief from his occupations?

Who can spread his hours before him, saying,

"This for God and this for myself; This for my soul and this other for my body"?

All your hours are wings that beat through space from self to self.

***

He who wears his morality but as his best garment were better naked.

فإن الرِّيح والشَّمس لن يَثْقُبا له جِلْدًا.

ومن يُحدِّدْ سلوكه بقواعد الأخلاق، يَسْجُنْ طائِرَه الصدّاح في قَفَص؛

فإن أكثر الأغاني انطلاقًا لا تنْبعثُ من بين الأسلاك والقُضْبان.

ومن يَرَ في العبادَة نافذَة يَفْتحها ثم يستطيع أن يُغلقها، فإنه لم يَلُمَّ بعد بمَسْكن روحه، حيث النَّوافِذُ تُشْرَعُ من فَجرٍ إلى فَجرٍ.

* * *

إن الحياة التي تَحياها كل يوم، هي مَعْبَدُك وهي دينُك؛

فاحرِصْ كُلَّما وَلَجْتها أن تأخذ معك كل زادِك:

خُذِ المِحْراث والكورَ والمِطْرقة والرَّبابَ،

والأشياء التي هيَّأتَها لتسدَّ حاجتك أو لتُرفِّه عنك؛

فإنك لا تستطيع حين تُحلّق في سماء أحلامك، أن تَسْمُوَ فوق ما عَلَوْتَ، ولا أن تَهبِطَ دون ما سقطتَ.

The wind and the sun will tear no holes in his skin.

And he who defines his conduct by ethics imprisons his song-bird in a cage.

The freest song comes not through bars and wires.

And he to whom worshipping is a window, to open but also to shut, has not yet visited the house of his soul whose windows are from dawn to dawn.

***

Your daily life is your temple and your religion.

Whenever you enter into it take with you your all.

Take the plough and the forge and the mallet and lute,

The things you have fashioned in necessity or for delight.

For in reverie you cannot rise above your achievements nor fall lower than your failures.

ولتَصْطحِبْ معك النّاسَ جميعًا إلى الهيكل:

فلن تستطيع خلال العبادة أن تُجاوزَ في تَحْليقكَ أمانيَّهم، ولن تهبط نَفْسُك إلى أدنى مِنْ مَواطئ يأسهم.

* * *

وإذا أردتم أن تَعْرفوا الله فلا تَشغَلُوا أنفسكم بحلِّ الألغاز،

بل انظروا فيما حولكم تَرَوْه يُداعب أطفالكم.

وانظروا إلى الفضاء تُبْصروه يسير بين السّحاب، ويَبْسُط ذِراعَيْه مع البَرْق، ويتنزّل في المطر.

ستروْن بَسْمَتَهُ في الزّهْرِ، وحين يعلو يَخْفقُ الشَّجرُ بخَفْقِ يديه.

And take with you all men:

For in adoration you cannot fly higher than their hopes nor humble yourself lower than their despair.

***

And if you would know God, be not therefore a solver of riddles.

Rather look about you and you shall see Him playing with your children.

And look into space; you shall see Him walking in the cloud, outstretching his arms in the lightning and descending in rain.

You shall see Him smiling in flowers, then rising and waving His hands in trees.

وهنالك تكلَّمت ألمِطْرا، وقالت: هلا تحدِّثنا الآن عن

الموت

فقال المصطفى:

تَوَدّون أن تَعْرِفوا سرَّ الموت،

فكيف تهتدون إليه إن لم تلتمسوه في السويداء من قَلْب الحياة؟

إنَ البومة التي تُبْصر في اللّيل وتَعْشو بالنّهار، لا تستطيع أن تكشف عن سِرّ الضِّياء.

فإن شئتم حقّا أن ترفعوا الحجابَ عن كُنْه الموت، فافتحوا قلوبكم على مَصاريعهاَ لكيان الحياة؛

لأن الحياة والموت واحد، كما أن النَّهر والبحر واحد.

* * *

وفي أعماق آمالكم ورغباتكم تَقْبَعُ مَعْرفَتُكم الصّامتة بالغيب.

وتَحْلُمُ قلوبكم بالرَّبيع، حُلْمَ البذور مَكْنونةً تحت الثَّلج.

ثقوا بالأحلام؛ إن في أطوائها بابَ الخلود.

Then Almitra spoke, saying,

We would ask now of *Death*.

And he said:

You would know the secret of death.

But how shall you find it unless you seek it in the heart of life?

The owl whose night-bound eyes are blind unto the day cannot unveil the mystery of light.

If you would indeed behold the spirit of death, open your heart wide unto the body of life.

For life and death are one, even as the river and the sea are one.

***

In the depth of your hopes and desires lies your silent knowledge of the beyond;

And like seeds dreaming beneath the snow your heart dreams of spring.

Trust the dreams, for in them is hidden the gate to eternity.

وما أشبه خَشْيتكم الموت بالرِّعْشة تُصيب الرّاعي في حَضْرَةِ المليك وهو يُرَبِّتُ على كتفه تكريمًا له.

ألا تطيبُ نفسُ الراعي عن هذه الرِّعْشَة بما سيتَقَلَّدُ من سِماتِ المليك؟

ولكن، ألا تراه أكثر التفاتًا إلى رِعْشته تلك مِن اكتراثه بما يعقُبها من تكريم؟

* * *

وهل الموت إلا أن نَقفَ عُراةً في مهَبِّ الرّيح، وأن نذوب في وَقْدَةِ الشَّمس؟

وهل تنقطع منا الأنفاسُ إلاّ لكيْ تتحرّر من شهيقها وزفيرها المتعاقبيْن علّها تصعد وتنطلق ساعيةً إلى الله بغير قيود؟

* * *

هَيْهاتَ أن تَشْدُوا بالغناء حَقا إلاّ إذا ارتويْتم من نهر السُّكون.

وهَيْهاتَ أن تَشْرَعوا في الصُّعود إلاّ متى بَلغْتُم قنّة الجبل.

وهَيْهات أن تَرْقُصوا حقا إلاّ يوم تَضُمُّ الأرضُ أعضاءكم وأطرافكم.

Your fear of death is but the trembling of the shepherd when he stands before the king whose hand is to be laid upon him in honour.

Is the shepherd not joyful beneath his trembling, that he shall wear the mark of the king?

Yet is he not more mindful of his trembling?

***

For what is it to die but to stand naked in the wind and to melt into the sun?

And what is it to cease breathing but to free the breath from its restless tides, that it may rise and expand and seek god unencumbered?

***

Only when you drink from the river of silence shall you indeed sing.

And when you have reached the mountain top, then you shall begin to climb.

And when the earth shall claim your limbs, then shall you truly dance.

وهنا كانت الشَّمْسُ قد مالَتْ إلى الغُروب.

وقالت العرّافةُ ألمطْرا:

«تباركَ هذا اليومُ، وتبارك هذا المكانُ، وتباركت روحُكَ التي حَدَّثتنا».

فقال المصطفى: «وهل كنت أنا الذي أتحدث؟

ألَمْ أكن أنا أيضًا مُسْتَمِعًا؟».

* * *

وهبط المصطفى درجاتِ المعْبَدِ فتَبعه النّاسُ جميعًا،

ثم صَعِدَ إلى سَفينته، ووقف على ظهرها.

وعاد يُواجه النّاس، ثم رفَع صوتَه قائلاً:

يا شعب أورفاليس، إن الريح تُهيبُ بي أن أفارقكم،

فلا مَفرَّ من الرَّحيل، وإن كنت أقلَّ من الريح لَهْفَةً.

إننا نحن الضّاربين في الآفاق السّاعين دائمًا إلى أشدّ الطُّرق عُزْلةً، لا نَسْتَهلُّ يومًا حيث انتهى بنا غيرهُ، ولا تَطْلُعُ علينا الشَّمْسُ حيث تَرَكَنا مَغيبُها.

And now it was evening.

And Almitra the seeress said,

Blessed be this day and this place and your spirit that has spoken.

And he answered, Was it I who spoke?

Was I not also a listener?

***

Then he descended the steps of the Temple and all the people followed him.

And he reached his ship and stood upon the deck.

And facing the people again, he raised his voice and said:

People of Orphalese, the wind bids me leave you.

Less hasty am I than the wind, yet I must go.

We wanderers, ever seeking the lonelier way, begin no day where we have ended another day; and no sunrise finds us where sunset left us.

بل إنّا لَفي رحْلة، حـــتى وإن كـــانت الأرض مُسْتَغرقة في رَقْدَتها.

وما نحن إلاّ بذور النّبات المَكين، لا تَتَلَقّفُنا الريح لتَنْثُرنا إلاّ عندما نَنْضَجُ وتُفْعَمُ قُلوبُنا.

* * *

قصيرةٌ كانت الأيام التي قضيتُها بين ظَهْرانيكم، وأقْصَرُ منها كَلماتي التي صَبَبْتُها في آذانكم.

فإذا ما خَفَت صوتي في آذانكم، واضمحلّ حُبّي في ذاكرتكم، فَلأرْجِعَنّ إليكم،

فأحدّثكم بقلبٍ أخصبَ عاطفةً وشَفَتَيْن أكثرَ استجابةً للروح.

أجلْ، لآتيَنّ مع المدّ،

وحتى إذا طواني الموتُ ولَفّني السُّكون الأعظم، فلسوف أسعى إلى مخاطبة ألبابِكم.

ولن يذهبَ هَباءً مَسْعاي؛

فلئن كانت الحقيقة في شيء مما حدّثتكم به،

Even while the earth sleeps we travel.

We are the seeds of the tenacious plant, and it is in our ripeness and our fullness of heart that we are given to the wind and are scattered.

***

Brief were my days among you, and briefer still the words I have spoken.

But should my voice fade in your ears, and my love vanish in your memory, then I will come again,

And with a richer heart and lips more yielding to the spirit will I speak.

Yea, I shall return with the tide,

And though death may hide me, and the greater silence enfold me, yet again will I seek your understanding.

And not in vain will I seek.

If aught I have said is truth, that truth shall

فستكشف هذه الحقيقةُ عن نفسها بصوت أوضَحَ نَبْرًا، وكلمات أقرب مَنالاً لأفكاركم.

* * *

يا شعب أورفاليس، إني أمضي مع الرِّيح، ولكنني لا أهبط إلى مهاوي العَدَم.

وإذا لم يكن يومُنا هذا قد سَدَّ حاجاتكم، وأشبعَ حبِّي، فموْعدُنا يوم آخر؛

فإن حاجات الإنسان تَتَغيَّرُ ولا يتغيّرُ حُبُّه، كذلك لا تتغيَّر رغْبَتُه في أن يَسُدَّ هذا الحبُّ حاجاتِه.

ولتَعلْموا إذًا أني سأعود من طَوايا السُّكون الأعظم؛

فإن الضَّباب الذي يَنْحَسرُ عند الفجر، ولا يترك في الحقول إلاّ قطرات النَّدَى، سيرتفع ويَنْعَقِدُ سَحابًا، ثم يَسّاقَطُ مَطَرًا.

وما كنت إلاّ كالغَمام،

أسيرُ في طُرقاتكم في هَدْأة اللّيْل، وتَدْلُفُ روحي إلى بيوتكم،

reveal itself in a clearer voice, and in words more kin to your thoughts.

***

I go with the wind, people of Orphalese, but not down into emptiness;

And if this day is not a fulfilment of your needs and my love, then let it be a promise till another day.

Man's needs change, but not his love, nor his desire that his love should satisfy his needs.

Know, therefore, that from the greater silence I shall return.

The mist that drifts away at dawn, leaving but dew in the fields, shall rise and gather into a cloud and then fall down in rain.

And not unlike the mist have I been.

In the stillness of the night I have walked in your streets, and my spirit has entered your houses,

وتلتقي في فؤادي ضربات ُقلوبكم، وتمسُّ وجهي أنفاسُكم، فلقد عرَفْتكم جميعًا.

أجلْ، عَرَفْتُ أفراحكم وآلامَكم، وكانت أحلامُكم في المنام أحلامي.

وما أكثر ما كنت بينكم كالبُحَيرة بين الجبال،

كالمرآة أعْكسُ ذُرى نفوسكم وما انعطَف فيها من مُنْحَدرات، أعْكِسُ حتّى مَواكب أفكاركم ورغباتكم.

وأقبلتْ إليَّ في سُكوني ضحكاتُ أطفالكم تَنْساب انسياب الجداول، وأشواقُ شبابِكم تجري جريان الأنهار،

حتى إذا مسَّت أعماقي، لم تكفّ الجداولُ والأنهارُ عن الشّدْوِ والتغريد.

* * *

ووافاني ما هو أحلَى من الضَّحك، وأروع من الأشواق؛

ذلك الذي لا يَحُدُّه شيء فيكم،

الإنسان الشّامل، الذي لا تُمثِّلون فيه جميعًا إلاّ الخلايا والأنسجة.

And your heart-beats were in my heart, and your breath was upon my face, and I knew you all.

Ay, I knew your joy and your pain, and in your sleep your dreams were my dreams.

And oftentimes I was among you a lake among the mountains.

I mirrored the summits in you and the bending slopes, and even the passing flocks of your thoughts and your desires.

And to my silence came the laughter of your children in streams,and the longing of your youths in rivers.

And when they reached my depth the streams and the rivers ceased not yet to sing.

***

But sweeter still than laughter and greater than longing came to me.

It was the boundless in you;

The vast man in whom you are all but cells and sinews;

أجلْ، إنه هو الذي يغيبُ كلُّ غنائِكُم في نشيده نبضات غير مسموعة.

إن فيّ اتّحادكم بالإنسان الشامل انطلاقًا يَخْرُجُ بكم إلى الشمول.

وما شاهدتكم وأحببتكم إلاّ حين شاهَدْتُه.

وهل يستطيع الحبُّ أن يبلغ من الآماد ما يُجاوز هذا الأفق البعيد؟

وأيُّ رؤى، وأيُّ آمال، بل أيُّ ظنون تستطيع أن تُساميه في عُلاه؟

إن الإنسان الشامل فيكم كدَوْحَة البلّوط تُجَلِّلُها أزهارُ التُّفّاح.

يربُطكم جَبَروتُه بالأرض، ويُحَلِّق بكم عبيرُه في الفضاء، ويَعْصِمُكم دَوامُه من الموت.

* * *

لقد قيل لكم إنكم كالسِّلْسلة ذاتها؛ وإذْ كنتم كالسّلْسِلة فأنتم ضعافٌ كأضعف حلَقاتها.

وما هذا القَوْل إلاّ نصْفُ الحقيقة؛ فأنتم أيضًا أقوياء كأقوى حلَقاتها.

He in whose chant all your singing is but a soundless throbbing.

It is in the vast man that you are vast,

And in beholding him that I beheld you and loved you.

For what distances can love reach that are not in that vast sphere?

What visions, what expectations and what presumptions can outsoar that flight?

Like a giant oak tree covered with apple blossoms is the vast man in you.

His might binds you to the earth, his fragrance lifts you into space, and in his durability you are deathless.

***

You have been told that, even like a chain, you are as weak as your weakest link.

This is but half the truth. You are also as strong as your strongest link.

ومن يَقسْكم بأقلّ أعمالكم شأنًا، يكُن كمَن يَقْدُرُ جبروتَ المحيط بوَهَن زَبَدِه.

ومن يَحْكُمْ عليكم بما أصابكم من إخفاق، يكُنْ كمن يلومُ الفصولَ على تَقَلُّبِها.

* * *

أجلْ، إنكم كالمحيط،

ومع أن السُّفُنَ الجانحات المُثْقَلات تنتظر المدَّ على شواطئكم، فإنكم كالمحيط لا تستطيعون أن تتعجَّلوا نصيبكم من المدّ.

ولأنْتم أيضًا كالفصول.

ومع أنكم في شتائكم تُنْكِرون الرَّبيع،

فالربيع الغافي في أعماقكم يبتسم في غَفْوته ولا يُسيئه إنكارُكم.

* * *

ولا تحسبوا أنني أقول هذا ليقولَ الواحدُ منكم للآخر: «لقد وفَّانا حقَّنا من المديح، ولم يَشْهَدْ غير الخَيْر فينا».

فما أنا إلاّ محدِّثكم بألفاظ عمّا تعرفونه أنتم بالفِكْر.

To measure you by your smallest deed is to reckon the power of ocean by the frailty of its foam.

To judge you by your failures is to cast blame upon the seasons for their inconstancy.

***

Ay, you are like an ocean,

And though heavy-grounded ships await the tide upon your shores, yet, even like an ocean, you cannot hasten your tides.

And like the seasons you are also,

And though in your winter you deny your spring,

Yet spring, reposing within you, smiles in her drowsiness and is not offended.

***

Think not I say these things in order that you may say the one to the other, "He praised us well. He saw but the good in us."

I only speak to you in words of that which you yourselves know in thought.

وهل مَعْرِفَةَ الألفاظ إلاّ ظلٌّ للمعرفة بلا لَفْظ؟

إن أفكاركم وألفاظي إنْ هي إلاّ مَوْجاتٌ تَنْبَعِثُ من ذاكرة مختُومة تحتفظ بسجلاّت أماسينا،

وبذكريات الغابر من أيامنا، يَوْمَ لم يكن للأرض مَعْرِفَةٌ بنا ولا بذاتها،
وبتلك الليالي لَمّا كانت الأرضُ تضطرب ويلفُّها العَماءُ بردائه.

* * *

ولقد أتاكم الحكماءُ يَبْذلون لكم من حِكْمتهم، أما أنا فأتيتُ لأتَزوّد من حِكْمَتِكُمْ.

وهأنذا قد وجدتُ ما هو أعلَى شأنًا من الحِكْمة:

إنها جَذْوَةُ الرّوح فيكم تتزوّد دائمًا من ذاتها،

وأنتم في غَفْلَة من انتشارها تندبون أيامًا لكم ذَوَتْ.
إنها لَحياةٌ تَسْتَجْدي حياة أجسادٍ تخافُ القبورَ.

* * *

And what is word knowledge but a shadow of wordless knowledge?

Your thoughts and my words are waves from a sealed memory that keeps records of our yesterdays,

And of the ancient days when the earth knew not us nor herself,

And of nights when earth was upwrought with confusion.

***

Wise men have come to you to give you of their wisdom.I came to take of your wisdom:

And behold I have found that which is greater than wisdom.

It is a flame spirit in you ever gathering more of itself,

While you, heedless of its expansion, bewail the withering of your days.

It is life in quest of life in bodies that fear the grave.

***

وليس هُنا من قبورٍ،
وما هذي الجبال والسهول إلاّ مهادٌ وأحجارٌ تُوطأ للانطلاق.

فانظروا كلّما مررتُم بالوادي الذي أودعتم فيه أجسادَ أسلافكم وتأمَّلوا، تروْا أنفسكم وأطفالكم في حَلْقَة رقص متشابكي الأيدي.

ولَعَمْري إنكم لَتَمْرحون كثيراً وأنتم غافلون.

* * *

ولقد أتاكم آخرون واشتروا إيمانكم بالوعود البَرّاقة، فجازَيْتُموهم على ما بذلوا بالثَّراء والسُّلطان والمجْد.

أما أنا فقد بذلْتُ لكم ما هو أقلُّ من الوَعْد، وكان جزاؤكم لي أنْدى سَخاءً،
لقد وَهَبْتُموني أحَرَّ الظَّمأ إلى الحياة.

ولعمْري، أيُّ هبَة يَتَلقّاها الإنسان أنْفَسُ من تلك التي تجعل كل ما يسعى إليه شفاهًا ظَمْأى، وتجعل حياتَه كلَّها نَبْعًا ثرًا لا ينضب؟

There are no graves here.

These mountains and plains are a cradle and a stepping-stone.

Whenever you pass by the field where you have laid your ancestors look well thereupon, and you shall see yourselves and your children dancing hand in hand.

Verily you often make merry without knowing.

***

Others have come to you to whom for golden promises made unto your faith you have given but riches and power and glory.

Less than a promise have I given, and yet more generous have you been to me.

You have given me my deeper thirsting after life.

Surely there is no greater gift to a man than that which turns all his aims into parching lips and all life into a fountain.

وفي هذا فخري وجزائي ،

فكلما قصدتُ النَّبع لأرْتَوِيَ وجدتُ المياهَ الدافِقَةَ نَفْسَها عَطْشَى ،

فإذا هي تشربُني حين أشربُها .

* * *

وقد ظنَّ بعضكم أنَّ كبْرياءَ بي وفَرْطَ حياء ، صرَفاني عن قبول الهدايا .

ولعْمري إني آنَف من قبول الأجور ، لا الهدايا .

فقد رُحْت أغْتَذي من توت التِّلال ، حين تمنَّيْتم عليَّ أن أجلس إلى موائدكم ،

وأنامُ في رُواق المَعْبد ، وأنتم تدعونني عن طيب نفس إلى رِحاب بيوتكم .

ومع ذلك ، أفلم يكن احتفاؤكم الرَّفيق بأيامي ولياليَّ هو الذي جعل الطعام في فمي حلو المذاق ، وطوَّق منامي بالرُّؤى؟

* * *

And in this lies my honour and my reward,-

That whenever I come to the fountain to drink I find the living water itself thirsty;

And it drinks me while I drink it.

***

Some of you have deemed me proud and over-shy to receive gifts.

Too proud indeed am I to receive wages, but not gifts.

And though I have eaten berries among the hills when you would have had me sit at your board,

And slept in the portico of the temple when you would gladly have sheltered me,

Yet it was not your loving mindfulness of my days and my nights that made food sweet to my mouth and girdled my sleep with visions?

***

ومن أجل ذلك أبارككم أطيب البَركات؛

فإنكم تُعطون الكثير ولا تَدْرون على الإطلاق أنكم تعطون.

والحقُّ أنَّ الحنان الذي يتأمَّل نفسه في المرآة ينقلب صَخْراً،

والعَمَل الطِّيّب الذي يَنْعَتُ نفْسَه بجميل السَّجايا يغدو للّعنة أبًا.

* * *

ولقد دعاني بعضكم عَزوفًا، نَشْوانَ بوحْدَتي،

وقلتم: «إنه يأنَسُ بأشجار الغاب، ولا يأنسُ بالناس،

ويجلس وحيداً فوق قِمَم الجبال، ويُشْرِفُ من عَلٍ على مدينتنا».

ولقد تسلَّقْتُ الجبالَ حقا وضربتُ في آفاق بعيدة؛

ولكن هل كان لي أن أراكم إلاّ من ارتفاع شاهق أو بُعْد مَديد؟

وكيف يحسّ المرءُ القربَ حَقّا إن لم يُعانِ مرارة البعاد؟

* * *

For this I bless you most:

You give much and know not that you give at all.

Verily the kindness that gazes upon itself in mirror turns to stone,

And a good deed that calls itself by tender names becomes the parent to a curse.

***

And some of you have called me aloof, and drunk with my own aloneness,

And you have said, "he holds council with the trees of the forest, but not with men.

"He sits alone on hill-tops and looks down upon our city."

True it is that I have climbed the hills and walked in remote places.

How could I have seen you save from a great height or a great distance?

How can one be indeed near unless he be far?

***

ومنكم مَن هتف بي ولم ينطق:

«أيُّها الغريبُ! أيُّها الغريب! يا عاشقَ الذُّرَى المنيعة، لمَ تَخْلُد إلى القِمم حيث تبني النُّسور أعشاشَها؟

وما بالُك تَسْعى إلى ما لا يُنال؟

وأيُّ العواصف تَرومُ إيقاعها في شباكك؟

بل أيُّ طيور أثيريَّة تقتنصُ في السَّماء؟

تعالَ وكُنْ واحداً منا.

اهبطْ، وسَكِّن جوعَك بخُبْزنا، وارْوِ غُلَّتَك من راحِنا».

أجلْ، لقد قالوا ذلك إذْ خَلوْا إلى نفوسهم،

ولو كانت خَلْوتُهم أبعدَ غوْراً، لعلموا أنني إنما تَعَقَّبتُ سِرَّ أفراحكم وأتْراحِكم

ولم أصْطَدْ إلاّ نفوسكم الطَّلْقة وهي تَذْرَعُ السَّماء.

* * *

And others among you called unto me, not in words, and they said:

"Stranger, stranger, lover of unreachable heights, why dwell you among the summits where eagles build their nests?

"Why seek you the unattainable?

"What storms would you trap in your net,

"And what vaporous birds do you hunt in the sky?

"Come and be one of us.

"Descend and appease your hunger with our bread and quench your thirst with our wine."

In the solitude of their souls they said these things;

But were their solitude deeper they would have known that I sought but the secret of your joy and your pain,

And I hunted only your larger selves that walk the sky.

***

ولكن الصَّياد كان الصَّيْدَ أيضًا ؛

فقد انطلقت كثيراتٌ من سِهام قَوْسي لِتَرْتدَّ ساعيَةً إلى صدري .

كذلك كان الطائر زاحفًا على الأرض ؛

فحين بَسَطْتُ جناحيَّ في رحاب الشَّمس تَمَثَّلَ ظِلُّهُما سُلَحْفاةً تَزْحفُ على الأرض .

وكنت أنا المؤمن والمُسْتَريبَ معًا ؛

فما أكثر ما وضعت إصبعي على جُرْحي ؛ لعلَّ إيماني بكم يشْتَدُّ ، ومعرفتي بكم تنمو وتتَّسع .

* * *

وإني لأقول لكم عن هذا الإيمان وعن هذه المعرفة :

إنكم لستم رُهَناءَ أجسادكم ، ولا سُجَناءَ بيوتكم وحقولكم ؛

فإنَّ ذاتكم تسكُن فوق الجبل ، وتَسْري مع الريح .

وليست هي بالشيء الذي يزحف إلى الشَّمس سعيًا إلى الدِّفْء ، أو يَحْفِرُ جَوفَ الأرض في الظَّلام طلبًا للأمان .

But the hunter was also the hunted;

For many of my arrows left my bow only to seek my own breast.

And the flier was also the creeper;

For when my wings were spread in the sun their shadow upon the earth was a turtle.

And I the believer was also the doubter;

For often have I put my finger in my own wound that I might have the greater belief in you and the greater knowledge of you.

***

And it is with this belief and this knowledge that I say,

You are not enclosed within your bodies, nor confined to houses or fields.

That which is you dwells above the mountain and roves with the wind.

It is not a thing that crawls into the sun for warmth or digs holes into darkness for safety,

وإنما هي شيء حـرٌّ، بل روح تُحـيط بالأرض، وتنطلق في الأثير.

فـإذا بدت كلمـاتي هذه غـائمـة فـلا تَسـعَـوْا إلى تبْيانها؛
فَـإن الغـامض والغـائم همـا بداية كـل شيء وليسـا نهايته.

وتمنَّيت أن أكون في ذاكرتكم بداية،

فالحياة ـ ومثلها كل حيٍّ ـ يبدأ الحَمْلُ بها في الغَمام لا في الصَّفاء.

ومن يدري لعلَّ الصَّفاءَ غمامٌ تَحَلَّل؟

* * *

ولْتَذْكروا ما سأقوله عندما تَذْكرونني:

إن مـا يبـدو لأعـينكم أضـعفَ مـا فـيكم وأكـثـره اضطرابًا هو في الحق أقوى ما فيكم وأشدُّه ثباتًا.

أليست أنفاسُكم هي التي أقامت هيكلَ عِظامكم وقوَّت دَعائمَه؟

ألـم يكن حُلْمًا غابَ عن ذاكرتكم أجمعين، ذلك الذي شَيَّد مدينَتَكم وشكَّلَ كلَّ ما فيها؟

But a thing free, a spirit that envelops the earth and moves in the ether.

If these be vague words, then seek not to clear them.

Vague and nebulous is the beginning of all things, but not their end,

And I fain would have you remember me as a beginning.

Life, and all that lives, is conceived in the mist and not in the crystal.

And who knows but a crystal is mist in decay?

***

This would I have you remember in remembering me:

That which seems most feeble and bewildered in you is the strongest and most determined.

Is it not your breath that has erected and hardened the structure of your bones?

And is it not a dream which none of you remember having dreamt, that builded your city and fashioned all there is in it?

فلو أبصرتم أنفاسكم وهي تضطرب لأغفلتم رؤية أي شيء سواها،

ولو استطعتم أن تسمعوا هَمَسات ذلك الحلم لكَفَفْتُم عن سماع أيٍّ صوت آخر،

* * *

لكنكم لا تُبصرون ولا تسمعون، وهذا خَيْرٌ لكم.

فإنَ الحجاب الذي يَغْشَى أبصاركم سترفعه اليدُ التي نسجت خيوطَه،

والطِّين الذي يَسُدُّ آذانكم ستَنْفُذُ فيه الأصابع التي عَجَنَتْه.

ولسوف تُبصرون،

وتسمعون.

ولكنكم لن تأسَوْا على ما أصاب أعيُنكم من عَمى، ولن تأسَفوا على ما نزل بآذانكم من وَقْر.

فلسوف تعلمون يومئذ العِلل الخفيَّة للأشياء،

وتُباركون الظُّلمة كما تباركون النّور.

* * *

Could you but see the tides of that breath you would cease to see all else,

And if you could hear the whispering of the dream you would hear no other sound.

***

But you do not see, nor do you hear, and it is well.

The veil that clouds your eyes shall be lifted by the hands that wove it,

And the clay that fills your ears shall be pierced by those fingers that kneaded it.

And you shall see.

And you shall hear.

Yet you shall not deplore having known blindness, nor regret having been deaf.

For in that day you shall know the hidden purposes in all things,

And you shall bless darkness as you would bless light.

***

وما إن فرغ من خطابه، حتى نظر حَوالَيْه فرأى رُبَّان سفينته واقفًا بجوار الدَّفة، تارةً ينظر ويتأمَّل الأشْرِعَة المنشورة، وتارةً يمدُّ بصره إلى الأفق البعيد، فقال:

يا لَصَبْرِ رُبَّان سفينتي، يا لَصَبْرِه!

تَهُبُّ الريح، والشِّراع قلق؛
بل الدَّفَّة نفسها تهفو إلى مَنْ يتولّاها،
ومع ذلك فرُبّانُ سفينتي يَرْقُبُ سكوني في هدوء.
وهؤلاء الملاّحون رفاقي الذين استمعوا إلى أناشيد البَحْرِ الأعظم، استمعوا لي أيضًا صابرين.

والآن، لن يطولَ بهم الانتظارُ؛
فقد اتَّخَذْتُ أُهْبَتي،
وبلغ الجدولُ البحرَ، ومرَّة أخرى تضمُّ الأمُّ الكبرى ابنها إلى صدرها.

* * *

وداعًا يا أهل أورفاليس،
فقد ولَّى هذا اليوم،
وها هو ذا يُسْدِلُ علينا سِتارَه، كما تُسْبِلُ زَنْبَقَةُ الماءِ أوراقَها على غدِها.

After saying these things he looked about him, and he saw the pilot of his ship standing by the helm and gazing now at the full sails and now at the distance. And he said:

Patient, over patient, is the captain of my ship.

The wind blows, and restless are the sails;

Even the rudder begs direction;

Yet quietly my captain awaits my silence.

And these my mariners, who have heard the choir of the greater sea, they too have heard me patiently.

Now they shall wait no longer.

I am ready.

The stream has reached the sea, and once more the great mother holds her son against her breast.

***

Fare you well, people of Orphalese.

This day has ended.

It is closing upon us even as the water-lily upon its own to-morrow.

ولسوف نحتفظ بما أوتينا هنا.

فإذا لم يكف حاجتنا، فلا مناص من أن نلتقي مرّةً أخرى، ونمدَّ أيدينا معًا إلى مَنْ آتانا مِنْ نِعَمِه.

ولا تَنْسَوْا أنّي عائدٌ إليكم.

إنْ هي إلاّ لحظةٌ قصيرة ثم يُعاودني الشّوقُ إلى جمع التُّراب والزَّبد لِجَسَد جديد،

أجلْ، هُنَيْهَة، بل لحظَةً قصيرة أخْلُدُ فيها إلى السَّكينة على مَتْن الرِّيحِ، ثم تحمل بي امرأة أخرى.

* * *

وَداعًا لكم، وداعًا للشّباب الذي قضيتُه بينكم.

فبالأمس وحَسْبُ التقينا في حُلْم.

وغنَّيتم لِي في وَحْدتي، ومِنْ أشواقكم أقمتُ بُرْجًا في السَّماء.

ها هو ذا النَّوْمُ قد ولّى، وحُلْمُنا قد انقضى، وانحسر الفجرُ،

والظَّهيرة فوق رؤوسنا، وقمنا من غَفْوَتِنا إلى رائعة النهار، ولا مَفرَّ من الرَّحيل.

What was given us here we shall keep.

And if it suffices not, then again must we come together and together stretch our hands unto the Giver.

Forget not that I shall come back to you.

A little while, and my longing shall gather dust and foam for another body.

A little while, a moment of rest upon the wind, and another woman shall bear be.

***

Farewell to you and the youth I have spent with you.

It was but yesterday we met in a dream.

You have sung to me in my aloneness, and I of your longings have built a tower in the sky.

But now our sleep has fled and our dream is over, and it is no longer dawn.

The noontide is upon us and our half waking has turned to fuller day, and we must part.

فإذا قُدِّر لنا أن نلتقي في غَسَق الذّاكرة مَرَّة أخرى، فسيتَّصلُ بيننا الحديثُ من جديد، وستُنْشِدون لي أغنية أبعدَ غَوْرًا.

وإذا قُدِّر لأيدينا أن تَلْتَقِي في حُلْم آخر، فسنقيم بُرْجًا آخر في السَّماء.

* * *

وما إن فرغ من حديثه حتى أشار إلى الملاّحين فرفعوا المرْساة على الفور، وأطلقوا السَّفينة من عقالها، ومَضواْ شَطْرَ المشْرِق.

وصَرَخَ النّاس كأنهم من قلب واحد يصرخون، وتعالى صُراخهم في عَتَمَة الغَسَق، وحملته الرِّيح إلى البحر كأنه دَوِيُّ بوقٍ عظيم.

«المطرا» وحدها لزمت الصمت، وراحت تُشيِّع السَّفينَة بنَظَرها حتى توارت في الضَّباب.

وعندما تفرَّق شَمْلُ الناس جميعًا، ظلّت واقفةً وحدَها فوق سَدِّ البحر تَتَمثَّل في قلبها قولَه:

«أجل، هُنَيْهَة، بل لحظة قصيرة أخْلُدُ فيها إلى السَّكينة على مَتْنِ الرِّيح، ثم تَحْملُ بي امرأة أخرى».

If in the twilight of memory we should meet once more, we shall speak again together and you shall sing to me a deeper song.

And if our hands should meet in another dream we shall build another tower in the sky.

***

So saying he made a signal to the seamen, and straightway they weighed anchor and cast the ship loose from its moorings, and they moved eastward.

And a cry came from the people as from a single heart, and it rose into the dusk and was carried out over the sea like a great trumpeting.

Only Almitra was silent, gazing after the ship until it had vanished into the mist.

And when all the people were dispersed she still stood alone upon the sea-wall, remembering in her heart his saying:

"A little while, a moment of rest upon the wind and another woman shall bear me."

«أقوال النقاد في هذا الكتاب»

تصدّى الدكتور ثروت عكاشة لترجمة خمسة كتب كاملة [هي النبي، وحديقة النبي، ورمل وزبد، وعيسى ابن الإنسان، وأرباب الأرض] لكاتب متميز في فكره ونزعته الروحية وأسلوبه الرومانسي. وهي كتب تنتظمها رؤية شاملة لكنها تتباين حسب موضوعاتها وتاريخ صدورها ومواكبتها لفكر الكاتب وأطوار حياته. وقد نهض الدكتور ثروت بهذا العبء على خير وجه، لم يحرم قلمه من بعض المرونة اللازمة لبلاغة الترجمة ومواءمتها للغة العربية، ولم يفرض شخصه ولا روح عصره على النص القديم، بل أقام توازنًا ناجحًا بين المرونة والأمانة، فقدّم إلى أجيالنا المعاصرة هذا التراث الجليل الذي سبق أن قدّمه بروح عصر سابق أدباء أجلاّء مثل الشاعر المفكر ميخائيل نعيمه. لكن مرور الزمن واختلاف العصرين وبُعد الشُّقة بيننا وبين جبران كان يقتضي ترجمة كاملة لهذا التراث الكبير ودراسة عصرية له.

وقد تجمع الرؤى الرومانسية هذه الكتب الخمسة، لكنها تختلف في طبيعتها وفيما تواجه به المترجم من ظواهر لغوية وأسلوبية وتجليّات فكرية ونفسية تقتضي حسًّا دقيقًا بطبيعة اللغتين، وجهدًا كبيرًا لنقل النصّ ـ معنى وروحا وأسلوبا ـ في أضيق نطاق من «التصرّف» تفرضه أساليب اللغة العربية وإيقاعها العام. ولا شك أن مثل هذا التصرّف اليسير أمر مباح

في الترجمة لكي لا تكون ترجمة آلية محضة، وحتى لا يُحرم المترجم من بعض ما يؤثر من مفردات أو أبنية أسلوبية لا تعدو على النص بالتحريف أو الشرح أو الإضافة. لكن يبقى لترجمة الدكتور ثروت ـ مع هذا التصرّف اليسير ـ رقّة التعبير وشعرية الأسلوب وحسن اختيار المفردات لتماثل طبيعة النص الإنجليزي عند جبران، وتنفي تمامًا إحساس القارئ بالترجمة والنقل من لغة إلى لغة.

وقد ينساق بعض المترجمين وراء إغراء الموضوع الطريف على العصر وجاذبية اللغة القديرة على التعبير، فيبعدون قليلا أو كثيرًا عن النص بالحرص الزائد على البيان أو بالإضافة ـ عن غير وعي ـ إلى رؤية النص ومعانيه . لكن الدكتور ثروت ـ وقد فطن إلى طبيعة النص وأبان عنها بجلاء في مقدّمته الجامعة ـ كان بادي الحرص على أن تجيءَ ترجمته حاملة لروح العبارة الإنجليزية خالية من شطط البحث المقصود عن التعبير العربي الباهر، حريصة في الوقت نفسه على أن تحمل ما في النص الإنجليزي من روح الشعر وسمات البيان الخاصة.

وحين يتجاوز النص الإنجليزي عند جبران في كتاب «النبي» طبيعة الموعظة إلى الرؤية البصيرة التي تلتحم فيها نظرة الحكيم برؤية الشاعر وصياغته، ينهض الدكتور ثروت ببراعة إلى ذلك المستوى الشعري، فلا يحسّ القارئ العربي بأثر للترجمة، وكأنما هو يقرأ نصًا كُتب أصلا بالعربية.

والذى يتصدّى لترجمة كتاب مثل «النبي» يمتزج فيه الشعر بالحكمة ويبحث فيه صاحبه عن لغة جديدة قادرة على الجمع بين الوجدان والفكر، يصادف في الترجمة ـ إلى جانب مشكلاتها المعهودة في الخلاف بين طبيعة لغتين ومفرداتهما وأساليبهما ـ مشكلات خاصة تقتضي أن يكون المترجم قديرا على أن يهتدي في العربية إلى أسلوب فيه من الشعر ما لا يجور على الفكر، وفيه من الفكر ما لا يحيل النص إلى عمل ذهني محض. وقد تصادفه عبارات وأخيلة وتراكيب أسلوبية ليس من اليسير نقلها على مستواها في لغتها إلا بعد كثير من المعاناة التي تيسّرها القدرة والموهبة والسيطرة على مفردات اللغة العربية وأساليبها. وقد يضطر لكي ينقل روح النص في لغته إلى شيء من التصرّف الحذر ليوائم بين طبيعة اللغتين، أو لكي يُبقي على تفرّد النص نفسه بخصائص مميّزة تخرج بالمفردات أحيانًا عن دلالاتها المعهودة، أو تأتي بأبنية أسلوبية يختلط فيها وضوح الفكر بتهويمات الخيال والرمز. وقد التفت الدكتور ثروت عكاشة إلى كل ذلك، وكان حريصًا على أن ينقل روح الشعر وإيقاعه في نثر جبران وأن يحرص في الوقت نفسه على ألاّ يُغريه البيان العربي بالبُعد عن النص الإنجليزي أو التعديل فيه أو الإضافة إليه، إلا ما تقتضيه أحيانا طبيعة التعبير العربي أو إيقاع اللغة العربية.

د. عبد القادر القط

أنهيت اليوم قراءة ترجمة النبي، سلمت يداك، وسلم قلمك وذوقك الرفيع، وإحساسك المرهف وأناقتك فى التعبير والإخراج. إن «نبيّك» تحفة من تحف الأدب العربي، وحدث ذو شأن في تاريخ أدبنا المعاصر؛ قرأته بلذة ومتعة لم أشعر بمثلها منذ زمن بعيد، ولا يثيرهما في النفس إلا مثل هذا الفن الرائع الصافى.

نجيب صدقه

تحفة من تحف المكتبة العربية الغوالي. لست أدري أأثني فيه على مقدمته الرائعة أم على تعمق المترجم في فهم روح جبران ورسالته، أم على كفايته العجيبة فى إبراز المعنى الأصيل رافلا بأجمل حلة من حلل البيان العربي لفظًا وأسلوبًا.

عادل الغضبان

رأيت في هذه الترجمة من روعة الأداء ودقة التعبير وجمال الأسلوب ما أكّد عندي أن اللغة العربية غنية في أدائها وتعبيرها عن اللغة الإنجليزية بل عن سائر اللغات، وأنها أم اللغات حقّا متى أجادها وأتقن أسلوبها وعرف سرّها وإمكانياتها أديب كبير مثل السيد المترجم، يعرف مواطن الجمال والبلاغة في هذه اللغة الشريفة. ولقد شاقني أن أقرأ الترجمة والأصل معًا صفحة صفحة، فوددت أن يكون جبران حيّا ليشعر بما أشعر به من متعة وعزة وفخر بهذه الترجمة الشائقة الرفيعة.

طاهر الطناحي

إن من يقرأ كتاب «النبي» يشعر أن ثروت يعشق جبران، يحبّ إنتاجه ويعجب بصفاء نفسه رغم أنه عرف الخطيئة وعاش فيها. هو لا يترجم الكلمات بل يحوّلها شعرًا وموسيقى، لا يكتب العبارات في جمود ولكنه يعطيها من قلبه نبض الحياة. لا يضع اسمه على غلاف ولكنه ينسجه في كل الصفحات عواطف حارة متدفّقة تنبعث من كل السطور. ولا أدري لماذا داخلني شعور بأنه في هذا الكتاب يتحدّى كل الذين ترجموا أعمال جبران!

أحمد حمروش

هاهو ذا إنجيل جبران يدخل اللغة العربية في رواء الأسلوب الجزل والعبارة المشرقة التي أخذت سنوات من وقت المترجم، واعتصرت من عواطفه ما يجعل هذه الترجمة تعبيراً شفّافًا عن لقاء الذين أحبّوا جبران وفهموه، والذين تعذّبوا على صفحاته، ثم فتحوا عيونهم وقرءوها من جديد، فإذا هى صيحات عربي تنازعه الغربة والحنين إلى الوطن، وكان تحت أقدامه أقواس النصر يستطيع ـ لو شاء ـ أن يكتفي بها، لكنه فضّل على الطمأنينة وخمول السلامة أن يتعذب بالحنين والأحلام.

رشدى صالح

في كتاب «النبي» مفاجأة كأنها الوحي وانتفاضات روح تتكلم بلسان علويّ. وهكذا الفنان حينما يصفو من متاعب الدنيا واشتباكاتها، من شهواتها ونزواتها، ويخلد إلى القوة الكبرى العظيمة المسيطرة المستكنة في داخله، يبلغ أبراجًا عالية من الصوت والنغم والحكمة والحقيقة. وهكذا يجرى الكتاب، أسلوب في الترجمة جميل، وأسلوب في الأصل الإنجليزي بارع، وانفعالات روح وقلب أخذ من حياة الأرض وارتفع إلى حياة السماء، وتردّد بين الأرض والسماء تردّد الحيرة والخوف والثقة والقلق: تردّد الإنسان.

محمد زكي عبد القادر

بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of - Mankind's Cultural Heritage. "UNESCO " 1972.

The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on - Islamic Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press. London 1981.

The Miraj - Mameh : A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid - Studies and other Essays Presented to I.E.S. Edwards, The Egypt Exploration Society. London 1988.

أبحـــاث

The Portrayal of The Prophet. The Times Literary Supplement, 31 December 1976.

Problématique de la Figuration dans l'art Islamique.
La Figuration Sacrée.
La Figuration Profane.
Plastique et musique dans l'art pharaonique.
Wagner entre la théorie et l'application.

سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire du Collège de France , 73 Année. Paris, 11, Place Marcel Bertholet 1973.

المشكلات المعاصرة للفنون العربية . مؤتمر منظمة اليونسكو المنعقد بمدينة الحمامات تونس ١٩٧٤ .

حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ الكويت .

رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقيت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة . (دو قطر) . فبراير ١٩٨٩ .

* سبيل إلى تعميم مدن التكنولوجيا « تكنوپوليس » فى الوطن العربى . دراسة لندوة العالم العربى أمام التحدى العلمى والتكنولوچى . معهد العالم العربى بباريس . يونيه ١٩٩٠ .

* إطلالة على التصوير الإسلامى العربى والفارسى والتركى والمغولى . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى بأبى ظبى . أبريل ١٩٩١ .

* الدولة والثقافة . وجهة نظر من خلال التجربة . محاضرة بندوة الثقافة والعلوم . دبى . نوفمبر ١٩٩٣ .

* التصوير الإسلامى بين الإباحة والتحريم . بحث ألقى فى الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان . الأردن . فى المدة من ٥ إلى ٧ يوليه ١٩٩٥ .

* تساؤلات حول هويّة التصاوير الجدارية فى پايستوم . بحث ألقى فى مؤتمر « مصر إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى » المنعقد بروما فى المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ .

* الفن والحياة . محاضرة ألقيت ببهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة فى ٦ مارس ١٩٩٦ . الموسم الثقافى الفنى لجامعة القاهرة ، ثم فى المجمع الثقافى بأبى ظبى . أبريل ١٩٩٦ .

* نظرية الفن . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . إبريل ١٩٩٦ .

* التطهرّ النفسي من خلال الفن . محاضرة ألقيت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضرة عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يوليه ١٩٩٧ .

* فنون عصر النهضة «الرنيسانس» . محاضرة ألقيت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضرة عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يوليه ١٩٩٧ .

* فنون عصر النهضة «الباروك» . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافي . أبو ظبى فى ١١ نوفمبر ١٩٩٧ .

* فنون عصر النهضة «الروكوكو» . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي فى ١٠ مارس ١٩٩٩ .

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)